وزارة الثقافة والارشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

تاريخ الحضارة الأوربيّة

- تاليف : كلود ديلماس
- ترجمة : كوليت حبيب
- مراجعة : الاستاذ ابراهيم ابو حيدر

الناشر
الفن الحديث العالمي

سلسلة الثقافة الشعبية
٨

تاريخ
الحضارة الاوربية

هدية
وزارة الثقافة والارشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

تاريخ الحضارة الأوربيّة

. تأليف : كلود ديلماس
. ترجمة : كوليت حبيب
. مراجعة : الاستاذ ابراهيم ابو حيدر

سلسلة الثقافة الشعبية

الطبعة الاولى

المقدمة

« ليس المؤرخ ذلك الذي يعرف ،
انه ذلك الذي يبحث • واننا نبحث »
لوسيان فيفر

يقول رأي سائد ان الحضارة الاوروبية هي تراث الاغـريق والرومـان والمسيحيين • وهـذا صحيح ، ومن السخف أن نفكـر بنوات روحيـة لها قيمـة الحقيقة الواقعة • بيد أن التعريف يظل ناقصا ، اذ أنه لا يوحد الحضارة مع القيم الاخلاقية وحدهافحسب ، بل يوحي أيضا بأن الحضارة الاوروبية قد تطورتضمن مجرد الاطار الاخلاقية لهذه القوى الثلاث ، ويجعل من اوروبا فكرة خالصة • وليس المقصود انكار قيمـة الدوافع الآنية في العصور القديمة ، لكن الاكتفاء بها يعادل اهمال العديد من المظاهر الاساسية للقضية ،

كالمغامرات الكبرى للعصور الوسيطة ، والانقلابات التكنيكية والفكرية في القرن السادس عشر ، والثورات التي هيأت العصور الحديثة ، ودور البورجوازية والطبقات المتوسطة ، ونشوء البروليتاريا الصناعية ، الخ .

ولابد من طرح سؤال آخر منذ نقطة الانطلاق : ضمن أي اطار تاريخي تطورت الحضارة الاوروبية منذ مطلعها ، يعني بنتيجة أي تواصلات وأي انفصامات ؟ وتزداد أهمية هذا السؤال في نظرنا بقدر ما يبدو لنا ان التوحيد السياسي لاوروبا يمكن ان يكون الآن ، بعدما ظل طويلا يعتبر في حكم الاوهام ، تتويجا للجهود المبذولة على المستوى الرسمي مع الجماعية الاوروبية للفحم والفولاذ ، والاتحاد الاوروبي من اجل الذرة ، والسوق المشتركة ، الخ . لقد انقضى زمن طويل والاوروبيون يبحثون عن اوروبا (١) ، وانما أعني بالاوروبيين النخبة منهم بصورة خاصة . ولكن المناظرات السياسية بشأن أنظمة أوروبا الموحدة التي لما تبرح في طور الحمل ، ثم اقحام الحقائق الاوروبية ، بفضل الجماعية الاوروبية للفحم والفولاذ والسوق المشتركة ، في مشاغل الجماهير اليومية ، قد ادت جميعا منذ عدة سنوات الى ولادة « وجدان اوروبي ليست المفاهيم الفلسفية والآراء السياسية ميدانه الوحيد . في أي تيار

---

(١) أنظر العدد الخاص المكرس لاوروبا ، في تشرين الثاني ١٩٥٨ ، في مجلة Revue Militaire d'information

حضاري يمكن ادخال **هذا الوجدان الجديد** ؟ لعله من المفيد أن ينحني بعضهم على أسطورة اوروبا (١) ابنة الملك الفينيقي أجينور • وأن يعنى آخرون بدراسة ماكان « الانسان قبل الكتابة » على الارض الاوروبية ، بمقارنة تماثيل فينوس في ايركوتسك ، وويلندورف ، وليسبون وبراسمبوي ، ولوحات لاسكو ولوحات اسبانيا الكانتبرية (٢) ، وبتجديد معنى أنصاب ستونهانج ••• وليس مما يقل عن ذلك نفعا أن نذكر أنه اذا كان البشر قد سكنوا اوروبا منذ المرحلة الجليدية قبل الاخيرة ، فان عمليات استصلاح التربة التي كانت في أصل نشوء الاراضي القابلة للزراعة ، وارتسام أشكال الحقول على وجه الارض ، لم تبدأ الا في عصر الحجر المصقول Periode Neolithique مع استيطان المزارعين الاولين • وما الذي تدين به اوروبا لليونان ؟ انه الشكل والخطوط البارزة لمفهوم الانسان والمجتمع ـ ولروما وامبراطوريتها ؟ انه فكرة سياسية وتشريعية ، أي اطار ، بحيث اذا كان الحكم الروماني imperium لم يصنع اوروبا ، فهو قد هيأ لها ـ

---

(١) في الاساطير أن أوروبا هي ابنة أجينور ملك فينيقية ، وقد اختطفها جوبتر بعد ما تقمص صورة ثور ، وقصد بها الى كريت حيث اصبحت اما لميناس ملك كريت •

(٢) نسبة الى Cantabres • وهي سلسلة جبلية في اسبانيا موازية لجبال البيرينه « المترجمة » •

وللمسيحية ؟ انه روح حضـــارة وجوهرها • بيد أن التذكير بهذا كله لا يحل المشكلة التي تفرضها هـــذه الصيغة : « الحضارة الاوروبية » ، وهي مشكلــة في مقدورنا ان ندرك سعتها عندما نفكر بقول لوسيان فيفر التالي : « لا يقدم التاريخ للبشر مجموعة من الوقائع المنعزلة بل انه ينظم هـــذه الوقائع ويفسرها ، ولكي يفسرها فانه يرتبها فيمسلسلات دون ان يمنحها الانتباه نفسه • ذلك ان التاريخ ، شاء أم أبى ، انما يحصـــد الوقائع الماضية منهجيا ، ومن ثم يصنفها وفقا لحاجاته الراهنة • انه يستجوب الموت من أجل الحياة • »(١)
فليس ثمة تاريخ دون فرضية سابقة للاشتغال به •
وحين يقول ما جندي : « اني أتجول داخله مثل جامع خرق ، وأجد لدى كل خطوة شيئا هاما أضعه فـــي كيسي » ، فان لابيك يعارضه بقول واستر التالي : « اذا كنا لانعرف ما الذي نبحث عنه ، فاننا لن نعرف ما الذي نجده » • وأخيرا ، اذا لم يكن المقصود انكار حقيقة الاحداث ودور الافراد ــ مثل هذا الانكار أمــر طائش ــ فلا بد من التذكير بأنه لا يوجد أبدا في الحياة فرد مغلقعلى نفسه ، وبأن سائر المغامرات الفرديةتذوب في الواقع المعقــة للحقيقــة الاجتمــاعية ــ وهو واقع « متصالب » كما يقول علماء الاجتماع ــ التي تتسامى على تلك المغامرات ، وتحولها ، وتمنحها ابعادا جديدة

---

(١) Combats Pour L'histoire

ومعان جديدة ، فليست القضية اذن هي انكار الفرد بدعوى أنه مدموغ بالعرضية ، بل تجاوزه ، تمييزه عن القوى المختلفة عنه ، وبالتالي الارتكاس ضد تاريخ يرجع الى مجرد فعل بعض « الابطال » المختارين • ولقد كان تريتشكه يعتقد ان « البشر يصنعون التاريخ » الامر الذي رد عليه فرنان براندل ، مفتتحا في الكوليج دي فرانس محاضراته عن تاريخ الحضارة الحديثة، بقوله: « ان التاريخ يصنع البشر أيضا ـ تاريخ عميق ، صموت ، مغفل ، يفرض علينا الاقتراب من الحقائق الاجتماعية في ذاتها ، ومن اجل ذاتها • وحين اقول الحقائق الاجتماعية ، فاني أعني الاشكال العريضة للحياة الجماعية : الانظمة الاقتصادية ، والمؤسسات ، والهندسات الاجتماعية ، وأخيرا الحضارات » •

ان التاريخ انما يستمد الحياة من كونه مبهما ملتبسا •

• • • •

لايبدأ تاريخ الحضارة الاوروبية من لحظة معينة ، ولذا لم يكن بد من الاختيار ، الامر الذي لا يمكن ان يتحقق دون بعض الكيفية ، ومهما يكن من أمر ، فان أسبابا عديدة تحملنا على تحديد نقطة الانطلاق هذه بالعصر الكارولنجي (١) ، وهي أسباب تساعدنا بالاضافة

---

(١) الكارولنجيون Carotingiens هم السلالة الثانية من الملوك الفرنسيين ، وينتسبون الى شارلمان • حكموا في بيبان القصير حتى لويس الخامس (٧٥١ ـ ٩١٧) (المترجمة) •

الى ذلك على ان نفهم ماهي اوروبا ، وكيف تشكلت ، وما هي الادوار التي لعبتها بالتتابع في هذا التشكل كل من التواصلات القديمة والمستجدات • أليس يمكننا ان نرى مجرد صدفة بسيطة في تواقت حصارالبحر الابيض المتوسط من قبل المسلمـــين مع دخول الكارولنجيين المسرح ، بل اننا نستطيع على النقيض من ذلك ان نجد في هذا التواقت علاقة السبب بالنتيجة • فالامبراطورية الفرنكية قد وضعت أسس اوروبا الوسيطة ـ لكن الامر الذي لا يتطرق الشك اليه هو انها ما كان يمكن أن توجـــد لولا الاســلام • ان تاريخ الملكية الفرنكيـــة ينقسم الى جزأين متمايزين جدا حتى أنهما يشكلان تناقضا حقيقيا • فالجزء الواحد لمـــا يبرح رومانيا و « متوسطيا » ، بينما لم يعد الجزء الآخر كذلك • وبين هذين الجزأين يقع الهجوم الاسلامي الذي حطم الوحـــدة المتوسطية التي ظلت قائمة بعـــد انهيـــار الامبراطورية الرومانية •

ويقول مارك بلوك : « كانت الحضارة القديمـــة متمركزة حول المتوسط » • ولقد كتب أفلاطون : « اننا لا نقطن من الارض سوى ذلك القسم الذي يمتد من نهر الغاز Phase حتى عمد هرقل[1] ، منتشرين

---

(١) الغاز نهر ينحدر من القوقاز ، أما عمد هرقل فهي جبلا كاليه وابيلا ، وهما الاسمان القديمان لرأسي جبل طارق (المترجمة) •

حول البحـــر مثل انتشـــار النمل أو الضفادع حول مستنقع » • ورغما عن الفتوحات ، فقد ظلت هـــذه المياه نفسها ، بعد العديد من القرون المنصرمة ، محور الدولة الرومانية • وكان في مكنة شيخ أكويني أن **يحقق مطامحه** على ضفاف البوسفور ، وان يملك اراضي واسعة في مقدونيا • وكانت التقلبات الكبيرة **للاسعار** تهز الاقتصاد من الفرات حتى بلاد الغول • وما كان من المستطاع تصور وجود روما الامبراطورية لولا قمح أفريقيا أكثر مما هو مستطاع تصور وجود اللاهوت الكاثوليكي بدون اوغسطينوس الافريقي • وبالمقابل ، فانه ما كان يمكن اجتياز نهر الرين حتى تبدأ بلاد البرابرة الشاسعة الابعاد ، الغريبة والمعادية » (١) •

ولم يؤد **الحكم الروماني** Pase Romane **في** المقاطعات سوى الى تراكب نمطين من الثقافة ، وذلك لان الحضارة الرومانية ، المدنية ، لم تكن تقيم الا صلات غير مباشرة بالسكان الريفيين للبلدان المفتوحة ، فالمدن والارياف لم تكن مرتبطة ومتوحدة بمشاغل مشتركة ومصالح مشتركة • وكانت معظم مدن الامبراطورية ، وهي مستعمرات أسست بعد الفتح ، منشآت مصطنعة لم تصرقط في الغرب ، رغما عن وجود الورشات المهنية، مراكز تجارية وصناعية • ولكن السوق هي التي رمزت بادىء ذي بدء ، وعلى المستوى الاقتصادي ، الى وحدة

---

(١) La societe Feodale , T . 1 p . 4

الحضارة ، وهي التي كانت أحد العوامل الرئيسية في الازدهار الجديد • فلا المدن الرومانية ولا المدن الاغريقية كانت نماذج للمدن الغربية ـ فالتواصل الوحيد لم يتبد الا على المستويين الديني والاداري • لقد تطورت التجمعات الجديدة خارج المدينـــة القديمة ، حوالي المقبرة حيث كان يقام مصلى المسيحيين الاولين ، هـذا المصلى الذي كان في كثير من الحالات نواة مدينة جديدة • ومهما يبدو لنا ذلك غريبا للوهلة الاولى ، فانه لا بد من الرجوع الى الحضارة الايجية كي نفهم جيدا نشـوء الحضارة الاوروبية فقد كانت التجارة والصناعة عاملين أساسيين بالنسبة الى المدن الايجية ، سواء في ذلك أماكن السكنى الملكيـــة مثل كنوس Cnosse وفايستوس Phaistos ، أو القرى الريفية مثل برازوس Prasos وبالايكاسترو Palaicastro أو تجمعات الحرفيين الصغار مثل غورينا gournia أومراكز البحارة وأصحاب المراكب مثل بسيرا Pseira وموكلوس mochlos • ولا ريبة في أن الارياف الكريتية كانت على درجة حسنة من الاستثمار ، لكنها ما كانت كافية لمعيشة سكان الجزيرة • « ما العمـل اذن ؟ التجـــارة • الارض لا تكفـي ، فلنلتفت الى البحر » (١) وهكذا لا ينفصل الفلاح عن المدينة ولا عن البحر ، والمدن هي مرافىء ومخازن وأماكن للتعـامل

---

(١) Gustave Glotz , La sivilisation Egèenne , P . 215

التجاري • وحوالي منتصف القرن العاشر ، كان لا بد للتجار الاجانب الذين يؤمون بلاد الفلاندر وجرمانيا ان يودعوا بضائعهم في المخازن عند نزولهم في البحر : وهكذا أصبحت كلمة مرفأ Portus مترافقة مع كلمة تاجر mercantus • وكان لا بد لهؤلاء التجار من السكنى أيضا ، فكانت القصبة التي يملكها السيد والبلدة الاسقفية القديمة تستقبلانهم أحيانا ، لكنهم سرعان ماصاروا يفضلون الاقامة في بلدة جديدة • وظهر هذا الاتجاه نفسه بعد قرن من الزمان في بلاد المغول حيث نشأت الموانىء أيضا • وتشكلت حوالي الاديرة تجمعاتأطلق عليها اسم القصبات Burgus بيد أن الكلمة الجرمانية تطورت نحو معنى السوق Marchè، وكان الحرفيون يقيمون في هذه القصبات بالذات • ولعله لا علاقة مطلقا للكلمة السكاندينافية القديمة Vik بالكلمة اللاتينية Vicus بل كانت تعني « جونا » فقط • وصحيح أيضا أن الاماكن التي كان يختارها المهاجرون لاقامة ملكياتهم الريفية كثيرا ما تحمل في كتاب Landna Mêbok اسماء تنتهي بالمقطع Vik ، إذ كان المهاجرون يفضلون الاقامة على مقربة من المكان الذي أرسوا فيه • ولا بد لنا كذلك من التفكير بالنورمانديين كي نفهم النهضة المدنية التي أعقبت انهيار العالم القديم ، كي نفهم تلك الملاحم التي هي فلاحية وتجارية بقدر ما هي حربية ، والتي حددت منذ ذلك الزمن آفاق الحضارة

الاوروبية • فلا عجب اذن أن نستذكر هنا الكريتيين ، سادة المتوسط ثلاثة آلاف عام قبل الفايكنغ ، هؤلاء الذين صهروا ــ وهم يعملون على مساحة أوسع كثيرا ــ[1]

كل الواجهة الاطلسية لاوروبا من النيفا حتى جبل طارق في كتلة وحيدة من الملاحة ، شاقين بذلك الطريق لحضارة اوروبية ، مثلهم مثل الايجين الذين مكنوا في الماضي من قيام « المعجزة الاغريقية » والحضارة القديمة •

اذ الاتصال بين المتوسط الشرقي من جهة وجرمانيا من جهة أخرى لاقدم مما يحسب البعض ، ما دام يعود الى مرحلة أنصاب العصر الحجري Mègalithique ولقد اكتشفت في اوروبا آثار كثيرة للثقافات المتوسطية ــ مينوسية وميسينية[2] ، وفينيقية واغريقية ــ كما أن « أساليب في التفكير ، ومفاهيم عامة ، وفكرا أخلاقية ومؤسسات من مختلف الانواع ، وسائر القطع القابلة

---

(١) زاروا ايران وتركستان واشتغلوا بالتجارة في نوفغورود ، وأقاموا في اوكرانيا ، واستعمروا ايرلندا ، واكتشفوا منذ القرن العاشر غرونيلاند وشواطىء اميركا ، وهددوا بيزنطه سواء من جهة البحر الاسود او انطلاقا من مملكتهم في صقلية فيما بعد •

(٢) مينوسية Minoenne نسبة الى مينوس ملك جزيرة كريت ، وميسينية Mycènienne نسبة الى مدينة Nycen في اليونان التي ازدهرت فيها ثقافة عظيمة في العصر البطولي الاغريقي (المترجمة) •

للانفصال من الحضارة وحتى من اللغة ، قـــد سلكت طريقها نحو الشمال خلف التجار ، وعلى طول طـــرق التجارة • » (١) وكان بحر البلطيق بحرا أبيض متوسطا حتى درجة ما ، وفي الحديث عن شطئانه وجزره تمكن مارك بلوك أن يكتب : « كانت مؤسساتها تتحلى بهذه الصفة المشتركة ، ألا وهي ظهورها بوصفها دولا مدنية في أسسها » : (٢) كان ميناء بيركا في جـزيرة مالار مزدهرا منذ القرن التاسع ، وفي لوند Lund في منطقة سكانيا جمع الفايكنغ كميات هائلة من الذهب ، كما كان الفلاحون في جزيرة غوتلاند يعوضون بالملاحة عن سوء مواردهم ، الخ • كان هذا أحد قطبي اوروبا • أما القطب الآخر فكان البندقية ـ وهي بعد سلطة بحرية على صلات وثيقة ببيزنطه وبالمسلمين ، ووريثة مباشرة للكريتيين ، ومستعمرة للفينيديين Venedes الذين هم مـــن سكان شـــواطيء البلطيق ، وقـــد اختلطوا بالسكاندينافيين الذين هم لومبارديون ونزلوا شـــيئا فشيئا نحو الجنوب • وكانت مجموعات من السكان غير المستقرين تتموج عبر القارة ، بين هاتين الامبراطوريتين البحريتين ، وهم جميعا تجار جوالون يزورون المعارض والاسواق ، وقد أستقر بعضهم فيما بعد • ولقد اختلط بالسكانديناافيين بعض الشرقيين ، وبالخاصة اليهود ، الذين كانوا يعبرون اوروبا ويتاجرون فيها منذ عـــدة

---

(١) Henri Hubert : Lesgermains
(٢) La sociètè Feodale

قرون ، حاملين معهم مختلف أنواع النقود • بيد أن قسما آخر من السكان ـ الفلاحين والقرويين Manants ـ كانوا يعزقون الارض في الوقت نفسه ويحسنون شروط حياتها • ولقد وجه هؤلاء السكان نحو المدن بعضا من أبنائهم الذين شكلوا فيها تلك الفئة من الحرفيين الاحرار الذين لا غنى عنهم لتطور الحياة المدنية ، فيما راح عدد متزايد من الافراد ، وقد اضطروا الى هجرة ملكيات آبائهم ، يبحثون عن موارد جديدة • ولقد استنفد جهد استصلاح الارض قسما منهم ، لكنه لم يستنفدهم بكليتهم ؛ بينما كانت العبودية تتلاشى تدريجيا في الوقت نفسه • (١) ونشأ عن ذلك تطور مزدوج ، فزادت من جهة اليد العاملة المتوفرة بنتيجة ازدياد السكان ، ونقصت من جهة ثانية القوة المحركة بنتيجة انحلال نظام العبودية • وهكذا لم يكن بد ، على سبيل المثال ، من بناء طواحين مائية لتقوم مقام تلك الطواحين التي كانت تدار حتى ذلك الحين من قبل العبيد ، كما تحسن

---

(١) كان هذا التلاشي يتحقق بتأثير التفكير المسيحي بصورة جزئية فقط ، اذ أن المتطلبات الاقتصادية هي على الدوام ملحة جدا بحيث تسكت متطلبات الاخلاق ، لم يكن واردا أن تلغى العبودية نزولا عند تعاليم الانجيل : كان العبيد موعودين بملكوت السموات ، وضروريين في الوقت نفسه للفعالية الاقتصادية •

استخدام الاحصنة والماشية بصورة عامة (١) . وكان نشوء الاسواق المتزايدة العدد والموانىء يتطلب تنظيما جديدا للعمل ، وكانت القرى الريفية الكبرى تصبح مراكز تجارية يقيم فيها الحرفيون : كان انحلال **العزبة** Villa والملكية الكبيرة حوالي القرن العاشر يقضي على الثورة الوحيدة للصناعة في العصر الوسيط المتقدم ، اذ كان الملاك والمستثمرون ينجذبون نحو التجارة ، ومثلهم الموظفون وعملاء ما يسمى Vicus Nègociantium . يعني الحي التجاري للاديرة ... وظهر توازن جديد بين مختلف فئات السكان . لقد قاد العصر الوسيط الاغريقي المتوسط الشرقي من الحضارة الايجية الى الحضارة الكلاسيكية . وقد أعقبه ، ألف عام بعد النهضة الاغريقية ، أزمة جديدة من الانحلال وعملية حمل جديدة ، الحمل بالحضارة الاوروبية . ولعله من الادق أن نقول ، منذ تلك اللحظة ، الحضارة الاوروبية الاطلسية .

. . . .

ولكن ضمن أي أطر عامة وبتأثير أي أسباب ؟
يقول هنري بيرين : « شاهدت نهاية القرن الثامن

---

(١) Marc Bloch : Les inventions Mèpiénales inles Annles D'istoires économique Et Sociale ,

من عصرنا قيام أوضاع لم يسبق لها مثيل في اوروبا الغربية ، فللمرة الاولى منذ فجر العصور التاريخية انتقل مركز الحركة العامة للتجارة ، وليس الحركة السياسية وحدها ، من حوض البحر الابيض المتوسط الى حوض بحر الشمال . لقد كان محور الامبراطورية الرومانية واقعا في ايطاليا ومحور الامبراطورية التارولنجية في المنطقة الممتدة بين نهري الرين والسين ... وان روما هي التي أبعدت الآونة فكأنها رميت بالقوس على حدود اوروبا الجديدة . » (١) ان اوروبا الغربية ، يعني الكارولنجية ، قد تشكلت في عالم متميز لدى خروجها من الجماعية المتوسطية : لقد قامت الامبراطورية الفرنكية في وجه الامبراطورية البيزنطية ، والكنيسة اللاتينية في وجه الكنيسة الاغريقية ، والملكيات الكبيرة والامارات الاقطاعية في وجه المدن الصناعية وفي وجه الحكومة البيروقراطية للاراضي الخاضعة لاشراف القسطنطينية .

ورغما عن سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب ، ظل البحر الابيض المتوسط يشكل قطبا جاذبا : ففي سياق القرن الخامس استقر الغانداليون في

(١) Mohomet et Charlemagne , in la revue Belge de Philosophie et D'histoire

افريقيا ، والغيزغوطيون(1) في اكوينيا وفي اسبانيا ، والبورغونديون(2) في وادي الرون ، والاستروغوتيون(3) في ايطاليا ، كما حاول كلوفيس غزو البروفانس ... وظل البحر الابيض المتوسط بالنسبة الى الجرمان على ما كان قبلهم ، اي في مركز اوروبا ، لقد كان تيودوريك يمارس على الدول البربرية السلطة العليـــا التي لم يجرب أحد التهرب منها ، وذلك بالضبط بسبب احتلاله لايطاليا . وكان التوازن التقليدي لما يبرح على درجة

---

(1) الغيزغوطيون wioqoths هم الغوتيــون الغربيون الذين اجتاحوا المغول عـــام ٤١٢ ، وفي عام ٤١٨ تنازل الامبراطور مونوريوس لملكهم قاليا عن اكوينيا التي هي منطقة كبرى من المغول توافق حوض الغارون حاليا ، وقد أصبحت ملكية مستقلة في فترة من الزمن (المترجمة)

(2) البورغونديون Burgondes احد شعوب جرمانيا القديمة ، وقد اجتاحوا المغول واستقروا في حوض الرون عام ٤٦٠ . كانوا أقل الشعوب الجرمانية بربرية ، وحدادين ماهرين ، فتكيفوا بسهولة مع العادات الرومانية ، وقد تزوج الملك الفولكي الكبيـــر كلوفيس ابنة مليكهم (المترجمة) .

(3) الاوستروغوتيون Ostroqoths هم الغوتيون الشرقيون ، من الشعوب الجرمانية ، وقد أقاموا على ضفاف الدانوب في حالة تبعية للامبراطورية الرومانية ، لكنهم اجتاحوا ايطاليا وأسسوا فيها في نهاية القرن الخامس ، برئاسة تيودوريك ، مملكة قضى جوستينيان عليها عام ٥٥٢ (المترجمة) .

كبيرة من القوة بحيث استطاع جوستنيان ، بعد موت تيودوريك ، أن يتصور احياء الامبراطورية الرومانية وان يحققه على وجه التقريب ، وكان بويس وكاسيودور أيطاليين مثل القديس بنوا وغريغوار الكبير(١) ، وكان ايزيدور الاشبيلي(٢) اسبانيا ٠ وكانت ايطاليا هي التي تحتفظ بالمدارس الاخيرة وتنشر النسك الى شمال جبال الالب وتحمل المسيحية ما وراء بحر المانش ٠ واخيرا فقد ظل الغرب حتى منتصف القرن السابع خاضعا لسيطرة الشرق الاقتصادية ، وذلك بفضل الملاحة المتوسطية ، فأوروبا الغربية لم تنفصل عن التطور التاريخي للعصور القديمة ، ولم يكن ثمة ما يبشر بنهاية الوحدة الحضارية التي حققتها الامبراطورية الرومانية من عمد هرقل حتى بحر ايجه ومن شواطىء

---

(١) بويس Boïce فيلسوف وشاعر ورجل دولة في عهد تيودوريك ، أما القديس بنوا Benoit فهو بابا روميه من عام ٥٧٤ حتى ٥٧٨ ٠ وكان كاسيودور Cassiodire ايضا كاتبا ورجل دولة في عهد تيودوريك ، وغريغوار الكبير Cregoire Le qrand بابا لروميه من عام ٥٩٠ حتى عام ٦٠٤ ، وهو واضع الليتورجيا الغريغورية والطقس الكنيسي الغريغوري (المترجمة) ٠

(٢) ايزيدور الاشبيلي Isidore de Seville هو أحد كبار علماء العصور الوسيطة (٥٦٠ ــ ٦٣٦) ، وهو الذي حقق التنظيم النهائي للكنيسة الاسبانية (المترجمة) ٠

مصر وافريقيا حتى شطئان ايطاليا واسبانيا ·

لكن حدثا لم يكن في الحسبان جاء يحطم هـــذا المجموع المتجانس ، وذلك هو الفتح الاسلامي · لقد مات محمد عام ٦٣٢ بعد ما بشر بالحرب المقدسة التـــي استمرت ، بعد ما بدأت بفتح مكة (٦٣٠) الذي تلاه فتح الجزيرة العربية ، حتى أخضعت بالتوالي أمـــام الاســلام سورية (٦٢٩ ـ ٦٤٠) ، وبــلاد الفــرس (٦٣٧ ـ ٦٤٩) ، ومصر (٦٣٩ ـ ٦٤٧)· واتجهت الحملة بعدئذ نحو آسيا الصغرى وأرمينيا (٦٤٦ ـ ٦٦٦) وهددت الامبراطورية البيزنطية نفسها ، وفي عام ٦٧٣ وقع حصار القطسنطينية الذي لم ينقذها الا حمية الامبراطور ليون الثالث الايزوري الذي أوقف بصورة نهائية المد الاسلامي نحو الشمال · لقد أنقـذ العالم البيزنطي ، لكن الحركة تابعت مع ذلك سيرها في افويقيا الشمالية (التي اخضعت كليا عام ٧٠٩) · وبعد انهاء فتح اسبانيا (٧١١ ـ ٧١٤) ، فان مـــدا جديدا فتح أمام المسلمين ، في ٧١٩ ـ ٧٢٠ ، مناطق الروسيون Roussillon واللانغودوك الــواطىء Bas - Lanquedoc ، ثم اندفعت الجيوش الاسلامية نحو تولوز التي كان اودوس Eudes يدافع عنها ، وبلغت أكوينيـا · وفي عام ٧٢٥ اســتولى الفرســـان المسلمون على مدينة اوتان Autun بعد اجتيازهم وادي الرون ، كما شق أمير اسبانيا عبد الرحمن ، عام ٧٣٢ ، طريقه الى بوردو بعد اجتيازه نهر الغارون ،

وانطلق في اتجاه بواتيه وتور • وعندئذ فقط استطاع انتصار شارل مارتل أن ينقذ الغرب • وعرف المسلمون بعدئذ بعض النجاحات فأغاروا على آرل وأفينيون ، لكن قوة انطلاقهم كانت قد انكسرت • ومهما يكن من أمر ، فقد ظلوا رغما عن اضطرارهم لاخلاء أراضي المغول سادة أسبانيا ، وبالاخص سادة البحر الابيض المتوسط ، مما حدا بابن خلدون الى القول بأن « المسيحيين ما عادوا يستطيعون أن يبحروا بخشبة واحدة » على ذلك البحر • ويكفينا أن نقول ان عاقبة هذا الهجوم هي التي فككت العالم القديم وما بين الشرق والمغرب من روابط •

وانطفأت التجارة الكبرى مع الموانىء الشرقية عن طـريق مارسيليا وآرل خـلال القـرن الثامن ، كانت مارسيليا هي الميناء الذي يستورد عن طريقه الزيت الذي كان يوفر للكنائس ذلك النـور الذي دهش له المعاصرون • لقد أقلم الزيتون في البروفانس ، لكـن انتاجه ما كان يمكن ان يكفي لحاجات واسعة جدا مادام الدهن الحيواني محرما أثناء الصيام (وقد أطيلت مدته حتى خمسين يوما في القرن السادس) وفي أيام المرافع كالبيرمونات وغيرها • وهكذا كان الزيت المادة الدسمة الاولية الوحيدة المسموح بها في التغذية خلال قسم كبير من أيام السنة • لكن هذه المادة كانت تستورد مـن مصر خاصة ، وكان دير القديس دونيز يبعث الى مرسيليا كل عام رسلا مهمتهم تأمين الزيت الضروري لحاجات الدير ، بحيث كانت حركة المرور ناشطة على هذه الطريق

التي تزرعها القوافل منذ الازمان قبل التاريخية • ولقد قصـــدت الملكة برونيهوت Brunehaut (١) الى مرسيليا ، كما ان اجازة داغوبير ، حين انشأ عام ٦٢٩ سوقا على الطريق بين باريس وسان دوينز(٢) ، كانت تراعي شـــأن التجـــار اللومبارديين والاســبانيين والبروفانسيين الذين قد يؤمون هذه السوق • كذلك كانت مرسيليا الميناء الذي يستورد عن طريقه الورق البردي ،وهوالوسيلةالمعتادة للكتابة • وانقطعاستخدام ورق البردي في مطلع القرن الثامن ، وصارت الوثائق الرسمية تكتب على الرق ، وهو جلد خروف مجفف ومصقول ومهيء من بعد ليتلقى الكتابة • لقد سبقت حضارة الرق حضارة الورق ، وتميزت باختراع بالغ الاهمية هو الكتاب • فلم يكن معروفا حتى ذلك الحين سوى الملف او ما يدعىVolumen ، وهـو متعب الحجم والقراءة على السواء ، أما ذلك الاختراع الذي شـــاهد النـور في مرحلة غـير محـددة (في العصر

---

(١) هي ابنة أتاناجيلد ملك الفيزغوطيين وتزوجت سيجبير ملك المملكة الشرقية عام ٥٦٦ ، أما داغوبير فهو ملك المملكة الشرقية في عام ٦٢٢ ، وملك الفرنكيين في عام ٦٢٨ ، وقد حقق اصلاحات جذرية عديدة (المترجمة) •

(٢) ذلك هو معرض لاندي Landit الـذي كان أول المعارض الكبرى في العصر الوسيط •

الميروفانجي(١) على أغلب تقدير) ، فقد تحقق على أساس جلد الخروف ، ورسم بطابعه كل العصر الوسيط الذي احتلت تربية الخرفان خلاله مكانة من المرتبة الاولى ، وأدى نمو صناعة كانت في واقع الامر الصناعةالوسيطية الكبرى الوحيدة ، ألا وهي صناعة الجوخ ، وأصبحت الاديرة في كل مكان تقريبا ، في انكلترا ، وفي بـــلاد الغلاند ، وفي فرنسا ، هي مراكز تربية الخرفان ، اذ أصبح انتاج الرق ، بعد الفتح الاسلامي ، حاجة حيوية من حاجات المجتمع الغربي ٠

ويسأل مارك بلاك : « اين كان يبدأ في مختلف العصور ، بالنسبة الى مواطن من آرل أو ليون ، الشعور بالاغتراب ؟ كان هذا المواطن ، في القرن الرابع ، في بيته في قرطاجة وفي اليونان ، أما فيما وراء الرين ، فقد كان يصبح عند البرابرة ٠ وكان في القرن الثاني عشر في بيته في لوبيك ؛ اما في تونس فهو عند الكفار ، وفي الشرق الاغريقي عند الهراطقة »٠(٢) لقد حدث الارتداد نحو الشمال ، الذي أدى الى خلق فكرة اوروبا الغربية ،

---

(١) الميروفانجيون هم السلالة الاولى مـــن الملوك الفرنسيين ، وينتسبون الى الامير ميرونه Meronèe ٠ وآخـر ملوكهم هو شيلدريك الثالث المتوفي عام ٧٣٢ (م) ٠

(٢) Problémes D'europe , in les Annales D'histoire Économique Et Sociale , 1935 vll , pp : 448 et 83 .

على مهلته ، لكن بصورة حاسمة ، كان العالم القديم قد تهدم والبحر لابيض المتوسط قد أضحى بحيرة أسلامية بعدما كان بحيرة رومانية ، ولم تعد الملاحة البيزنطية تتجاوز شواطىء ايطاليا الجنوبية ، كما لم يعد البحر التيريني(١) يشاهد المراكب السورية مطلقا ، ونجد برهانا على سعة التبدل الواقع في استبدال النقد الفضي بالنقد الذهبي – وهي شهادة صالحة تضاف الى استبدال الرق بورق البردي • وعندئذ اتخذت الدولة الفرنكية كل أهميتها ، هي التي كانت قد تشكلت في منأى عن الشطئان المشمسة للبحر اللاتيني ، في احتكاك مع المحيط ومع الشرايين النهرية الكبرى لاوروبا الوسطى • وأصبحت هذه الدولة مركزا **جغرافياونواة لتشكل** جديد هو اوروبا الوسيطة ، وسواء أخذنا بعين الاعتبار الدين أو السياسة أو المؤسسات أو اللغات .. الآداب ، بله الكتابة نفسها ، فان التناقض واضح جدا بين الازمان الميروفانجية ، حيث تستمر العصور القديمة ، وبين الازمان الكارولنجية المبشرة بالتشكلات السياسية والمصائر الجديدة •

وما كانت ذرية الامبراطورية الرومانية ؟ لقد ربط تنصير الامبراطورية مصيرها بمصير الكنيسة ،

---

(١) البحر التيريني Mer Tyrrhenienne ، وهو واقع بين ايطاليا وكورسيكا وساردينيا وصقلية (م) •

فما انقطعت السلطة الامبراطورية عن الضعف منذ وفاة تيودوسيس (١) حتى الغاها اودوياكروس (٢) في الغرب في الرابع من ايلول عام ٤٧٦ • وحلت مكانها قوتان : قوة روحية هي البابوية وقوة زمنية هي الجرمان • وقد أدى نقل العاصمة الى القسطنطينية الى جعل البابا حامي المدينة الرومانية ، ثم زعيما لها ، مع تسليمه في الوقت نفسه السلطة السياسية الى الزعماء العسكريين ، يعني الجرمان في الغرب • ولسوف تحتفظ البابوية بروما ، بينما يعيد الجرمان تشكيل الامبراطورية • وتبقى روما ، لكن الامبراطورية تتبدل • تفشل المحاولة الاولى من أجل اعادة البناء ، وهي محاولة غوت تيودوريك(٣) ، اذ منعه اعتناقه لمذهب آريوس في تحقيق انصهار الجرمان مع الرومان ، هذا الانصهار الذي ما

(١) تيودوسيوس Thèodose امبراطور روماني (٣٧٩ ـ ٣٩٥) عجل في انتصار المسيحية على الوثنية ، وقهر البرابرة عدة مرات ،واستطاع ان يؤخر بعض الوقت انهيار الامبراطورية الرومانية (المترجمة) •

(٢) اودوياكروس Odèacre ابن أحد وزراء أتيلا ملك الهانز ، وزعيم أحد الشعوب الجرمانية ، اجتاح ايطاليا وخلع الامبراطور رومولوس اوغوستول عن العرش • قتل عام ٤٩٣ (المترجمة) •

(٣) غوت تيودوريك qoth Thèodorie ملك الاستروغوتيين ومؤسس ملكهم في ايطاليا • كان ذكيا وحازم الارادة ، وحاول عبثا ، بمساعدة وزيريه بويس وكاسيودور ، أن يعيد تشكيل الامبراطورية الرومانية عن طريق الجمع بين الرومان والمغويتين (٤٥٤ـ٥٣٦) (المترجمة) •

كان يمكن تحقيقه ، الا في ايمان مشترك • وقد حقق كلوفيس هذا الشرط المسبق حين اعتنق عـام ٤٩٦ الايمان الكاثوليكي من أجله ومن أجل الفرنكيين • ولقد برهن الكارولنجيون ، بعد الميروفانجيين الذين تعرضوا لبعض التردد في ارادتهم الامبراطورية ، على ان القوة الفرنكية هي القوة الوحيدة القادرة على الامبراطورية الرومانية • وفي عام ٨٠٠ ، في يوم عيد الميلاد ، وضع البابا ليون الثالث التاج على رأس شارلمان • وهكذا استقرت امبراطورية الغرب أخيرا ، لكن شكلها لم يعد بعد الآن شكل العالم المتوسطي حتى في حاله توسيعه الى ما وراء جبال الالب : لقد اتخذت هذه الامبراطورية بالاحرى شكل اوروبا • وبما أن العـزلة قـد خيمت اكثر فأكثر عـلى الموانىء المسيحية في البحـر الابيض المتوسط ، بينما يبني المسلمون في باليرمو ترسانة لهم وقاعدة لقراصنتهم ، فما أسرع ان تعرضت هذه الازمان الكارولنجية لازمـة اقتصادية تفسر انحـلال الامبراطورية التـي أسسها شارلمان • لقد دمر الاباطرة انفسهم بأيديهم حين اضطروا الى اسناد السلطة للارستقراطية بعدما أعجزهم نقص الموارد عن اسنادها الى موظفين مأجورين • وهكـذا نشأت الاقطاعية •••

* * * *

هكذا كانت هذه المرحلة البشرية الممتدة بـين القرنين الرابع والرابع عشر خالقة لاوروبا جـديدة

ما كان العالم القديم يعرفها ، اوروبا تطل واجهتها على الاطلسي وعلى بحر الشمال ـ ولقد تكيف الاقتصاد الغربي مع اوروبا الجديدة هذه ، ولعل الزراعة كانت ميدان أخصب التبدلات الحادثة من جراء ذلك التكيف ٠ لقد تمركزت طبقة من الفلاحين بصورة متينة على تربة اوروبا الغربية : فالقرون التي كانت شاهدة على هذا التجذر والتي رأت أصول الملكية الفلاحية كانت حاسمة في تاريخ الحضارة الغربية ٠ وهكذا فان اوروبا الغربية ، حسب الكلمة المبتكرة لروبير لاتوسن ، قد « نزعت عنها آثار الجنوب » (١) ان اقتصادا جديدا قد تشكل بتأثير السكان الشماليين ، وذلك ضمن اطار أكثر ضبابا وأقل شمسا ولم تلعب الحياة المدنية بادىء الامر في هذا الاقتصاد الا دورا ثانويا ، فيما كانت الحياة في الاقتصاد القديم متمركزة على المدينة ، فلم يكن الريف المحيط بهذه المدينة سوى عنصر مكمل لها ، وكان سكانه يعاملون باحتقار بوصفهم فلاحين (Pagani) ٠ فالتحول الذي طرأ لم يكن مجرد كسوف امتد عدة قرون ، لم يكن مجرد انحطاط ، بل كان تحولا عميقا وغير قابل للانقلاب ٠ ولا ريبة في أنه عندما انفتح البحر الابيض المتوسط مجددا أمام الاقتصاد الغربي في القرن الحادي عشر ، توسعت آفاق هذا العالم الريفي بالخاصة ، وعاود

---

(١) Les Origines De L'Économie Mèdièvale

أهالي الشمال اتصالهم بأهالي الجنوب ، يجتذبهم الذهب البيزنطي والذهب الاسلامي . بيد ان الاقتصاد الزراعي والاطلسي كان يقوم على أسس متينة جدا ما كان يمكن ان تقوم معها نهضة متوسطية .

وان تاريخ اوروبا ليبدأ في تلك الفترة .

الفصـــل الاول

المغامرات الكبرى في العصر الوسيط

يمكن تشبيه اوروبا في العصر الوسيط المتقدم بفسيفساء من الملكيات التي تعيش **بصورة تزيد أو تنقص** في اكتفــاء ذاتي • ذلك عصر من الحياة الريفيـــة الزراعية ، قلت فيه المبادلات حتى درجة بعيدة ونقص **التداول** • ولقد تميزت نهاية هذا العصر وبشـــائر العصور الجديدة بظهور شخصية جديدة ، التـــاجر المتجول من مكان الى مكان ، وذلك ما يشير الى خارطة أقسام عديدة من أوروبا سوف تتجدد **في وقت غير بعيد ،** سوف تغتني بالطرقات ، الارضية منهـا والنهرية ، وان مدنا جديدة سوف تنشأ عاجلا ، مدنا سيزدهـر فيها أسلوب جديد في الحياة وحضارة مدنية مكتملة • ولقد تواقتت هـذه اليقظة مع توقف الغزوات (١) ،

(١) توقفت حملات النهب التي كان النورمانديون والمسلمون يقومون بها ، ودمرت آخر قواعدهم ، في غارو ـ فرينه ، عام ٥٥٢ •

فصار في مكنة المرء أن يغامر بالخروج على الطرقات ٠ وكان ذلك عصر زيادة في السكان أيضا ، وفيه كذلك بدأ انتشار التبوير الثلاثي السنوات للارض الــــذي يسمح باستثمارها سنتين من كل ثلاث سنوات ، بدلا من التناوب القديم من الزراعة والراحة كل سنة بعد سنة ٠ وتبنى الفلاحون أنواعا جديدة من الحنطة ، مؤقلمين الجــاودار بالخاصة ، كمـــا تعلم الانسان بالاضافة الى ذلك أن يكون الحصان بطريقــة جديدة تسمح بجر أحمال أثقل عشر مرات مما مضى ، كمـــا تعلم أن يحدوه وأن يرتب حيوانات الجر على خط واحد ٠ وقامت طواحين عديدة على طول مجاري المياه وفوق الروابي ، فهي **تعمل** في طحن الطحين ، **وتخـــدم** في الوقت نفسه في شحذ أدوات اللبادين ، وخطاطيف **الحمالين** ، ومناشير النجارين ٠ وفوق البحر ، حررت البوصلة الملاحين من القيود التي كانت تجبرهم عـلى **عدم الابتعاد** عن الشطئان وعلى الاستهداء بنجم القطب٠ وفتحت المقالع ، فنقل في فرنسا وحدها خلال مائتي عام « عدد من الحجارة يفوق ما نقل منها في مصـــر الاهرامات في أي مرحلة في تاريخها » ، (١) كما أن أي بناء اغريقي او روماني لم يبلغ في ابعاده ٤٧٫٥ مترا التي هي أبعاد قبة بوفيه Beavais أو ١١٨ مترا التي هي طول ســـهم ستراسبورغ ، وكرس البـــابا

---

(١) راجع كتاب جان غالبل : Les Bâtisseurs Des Cathèdrales

اوريان الثاني الذي قدم ليرسل نداءه من أجل **الحرب** الصليبية الاولى احدى عشرة كنيسة جديدة بين آب ١٠٩٥ وتموز ١٠٩٦ ٠ وكان نشيـــد رولان وملاحم أخرى أيضا تنتقل من سوق الى أخرى ، ومن قصر الى آخر ٠ ولقد كان ظهور التاجر ، في هذه **اللوحـــة العامة** ، حدثا بالغ الاهمية : اننا نجده على كل الطرقات، وبالاخص الطرقات التي يسلكها الحجاج ٠ ففي عــام ٩٥٤ لوحظ أول حاج معروف قصد الى سان جاك دي كومبوستيل Saint Jacques de Compostelle وما أسرع ما ستتخذ حركة الحج ـ وهي لم تتوقف تماما قط ـ اتساعا غير عادي ، وتكشف ايضا عن خصب مدهش ، اذ كانت **كنيســـة ما تنهض بسرعة** حيثما يتوقف الحجاج ـ وهي الكنائس المسمـــاة كنائس الحج ، وقد كانت في ذلك الحين أكبر الكنائس المعروفة في المسيحية ـ أو ينتصب أيضا معبد مـــا ؛ نصفه ملجأ ونصفه مشفى ، يستطيع المسافرون قضاء الليل فيـــه ، ويستطيع المرضى أن يجدوا العنايـــة اللازمة ٠٠٠ ان طرقات قديمة سوف تبعث الى الحياة تحت أقدامهم ، ومثالها تلك الطرقات التي تؤدي عبر جبال الألب الى روما ، كما أن طرقات جديدة ستشق ، ومثالها طريق سان جاك دي كومبوستيل الواقعـــة

---

(١) كومبوستيل مدينة اسبانية تضم في كنيستها رفات القديس يعقوب ،وكانت كعبة يحج اليها المؤمنون من مختلف انحاء اوروبا (المترجمة) ٠

ما وراء البيرنيه ··· ان جمهورا كبيرا يتجول بعد الآن ، بعضه **راجلا** وبعضه **راكبا** ، يتجمع كي يجابه الطرقات ، لكنه يتجمع أيضا بدافع التقوى بكل بساطة (١) · وكانت مواقف الناس تسهل ايضا **حركة المرور** هذه ، اذ كانت الضيافة تعتبر أيامئذ واجبا مقدسا ، ولنا مثال على هذه الضيافة المنظمة ، منذ أواخر القرن الحادي عشر ، في المثاوي الخاصة بالحجاج ·

ولكن التجار كانوا يعبرون الطرقات الى جانب الحجاج · ان سائر اولئك الذين ينفرون من عمل الارض يستطيعون بعد الآن أن يبحثوا في مكان آخر عن معيشتهم · وفيما عدا ذلك ، كانت المعارض والاسواق المحلية تتوافق في أغلب الأحيان مع عيد لأحد القديسين يجتذب الحجاج · ولم يكن هؤلاء الحجاج يجتذبون التجار فحسب ، بل يجتذبون أيضا سائر اولئك المشتغلين بتجارة النقود ، أي الصيارفة ·

وكان لابد من مخازن من أجل البضائع : **لقد كانت نهضة المدن حيث يقيم التجار الرد الطبيعي على ورود الافواج الجديدة من السكان ·**

---

(١) دونما اساءة الى الحجوج المحلية

Règine Pernaud : Histoire de la Bourgeoisie En France , t : 1 , P : 15

التيارات التجارية الكبرى

يفسر تأسيس الملكية الانكلونورماندية ، ونشوء الدوقيات والامارات النورماندية ، وفيما بعد نشوء المملكة النورماندية في ايطاليا الجنوبية وفي صقلية ، بحدث من التاريخ الاجتماعي بالغ الاهمية ، ألا وهو زيادة السكان ابتداء من منتصف القرن العاشر • وكان من نتيجة ذلك ان نشطت التيارات التجارية ، فازدهرت التجارة الشمالية الجنوبية طوال قرنين ، وهي التي كانت تسوق فيما تسوق العبيد من انكلترا أو فردان نحو موانئ البحر الابيض المتوسط ، ومن هناك نحو اسبانيا الاسلامية (١) • وكانت البندقية مركزا لتيار آخر ، اذ اكتسب استيراد بضائع الترف الشرقية أهمية متعاظمة وأسهم في تطوير النشاط التجاري في ايطاليا الشمالية ، وبالخاصة في ميلانو وفي بافيا (٢) •

---

(١) انقطع هذا التيار في القرن الثاني عشر ، اذ استبدلت اسبانيا المسلمة بالعبيد السلاف العبيد السود المستوردين من منطقة النيجر عبر الصحراء •

(٢) Pavie ، وهي عاصمة مقاطعة لومبارديا الايطالية ، في الشمال ، وتقع على نهر تيسان القادم من الاراضي السويسرية (المترجمة) •

ولقد قام التجار الايطاليون بدورهم ، في القرن الحادي عشر ، بشحن هذه البضائع وسواها الى ما وراء جبال الألب بغية بيعها • لقد كان تيار مزدوج يجتـــاح الشمال : الواحد (وهو الأهم) يمر اما بالبروفانس والرون واما عبر جبال الجورا ، ومن ثم ببور غونيا وشامبانيا ، والآخر يتبع نهـر الراين • وكان هؤلاء التجار يعودون الى بلادهم بالجوخ لقاء سلعهم • وفي الوقت نفســـه كان التيار يربط الشرق البيـزنطي والشرق الاسلامي بسكانديناڤيا يزداد قوة اذ يصله تيار ثانوي صادر عن المخازن السويدية (غوتلاند) والدانمركية (شيلزوين ـ هيتابه) بموانيء الشمال في المانيا ، وبانكلترا ، وبالبلاد الواقعة بين الرين والسين •

وتعاظمت هذه التجارة بين ايطاليـــا والبلدان الواقعة الى شمال جبـــال الالب اعتبارا من النصف الثاني من القرن الثاني عشر حتى اكتسبت صفة الانتظام الحقيقي • ولنضف الى ذلك ان كثيرين من التجـــار ما عادوا ، منذ منتصف القرن ، يجتازون الطـــريق كلها ، بل كانوا يتلاقون في معارض شامبانيا (تروا ، بروفنس ، لاينسي ، بار رسور ـ اوب) التي بدأت تمركز حصة كبيرة من التجارة بين شـــمالي اوروبا وبلاد البحر الابيض المتوسط ، كي تلعب دورا أكثر أهمية في القرن الثاني • والحقيقة انه تم في ايطاليـــا تمركز للتجارة الدولية الكبيرة لمصلحة بعض المـدن

الكبرى ، كجنوا وبيزا والبندقية ٠ وظهر في الوقت نفسه تيار جديد ، ألا وهو تصدير خمور جنوب غربي فرنسا وملح خليج بورغنوف نحو انكلترا ونحو بروج ٠ (١) وكان التيار الغربي الشرقي ينمو في الوقت نفسه بقوة أيضا ، فبلاد الفلاند والبرابان (٢) تستورد الاصواف الانكليزية وتصدر الجوخ في اتجاه انكلترا وفي اتجاه الشرق ٠ ولقد ربح الشرق بفضل الدلتا ايسكور موز - رين ، ومن بعد بفضل هذا النهر الاخير ، الرين ، او الطرقات اليابسة بين بروج وكولونيا ٠ (٣) وكانت التجارة الرينانية تسير في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي ، انطلاقا من كولونيا ، الاجواخ وسائر المنتجات التي كانت تتمركز في هذا المكان : منتجات الشبهان الخاصة ببلدان ضفاف نهر الموز ، ومنتجات الصناعة التعدينية الرينانية - الويستفالية، الخ٠ وكانت الدروب المسلوكة اما طرقات معترضة يابسة في اتجاه هامبورغ وماغدبورغ وهابر نهر الالب ، واما الرين الاعلى ، والماين ، والدانوب ٠ والى جانب الاتجاه فلاندر كولونيا وامتداداته ، كانت الملاحة في بحر

---

(١) Bruqes ، وهي عاصمة مقاطعة الفلاندر الغربية ، في بلجيكا ، وتقع على ملتقى عدة أقنية كبرى (المترجمة) ٠

(٢) Brabaut ، وهي المقاطعة البلجيكية التي عاصمتها بروكسل (المترجمة) ٠

(٣) الامر الذي ساعد على تطور المدن البرابانية ٠

الشمال ، بين لندن وبروج من جهـــة ، وبين بريم وهامبورغ من جهة أخرى ، وهي الملاحـــة التي انتقل القسم الاكبر منها ، في سياق القرن الثاني عشر ، من أيدي الدانمركيين الى ايدي اهالي المانيا الشمالية ، مع اشتراك الفلمنكيين والانكليز فيها • وان الاستعمار الالماني ما وراء نهر الالب ، وبدء الحركة التي دفعت أهالي الساكس الواطىء دويستفاليا والبلاد الرينانية الى تأسيس مدن المانية على شواطىء بحر البلطيق ، (١) وقد وهبا لهذا التيار التجاري ، منــذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، كل ما يتمتع به من أهمية •

وتطورت هذه الاتجاهات في القرن الثالث عشر • كان المركز المنظم للتيار الذي يجمع اوروبا الشمالية الغربية الى بلاد البحر الابيض المتوسط هي معـــارض شامبانيا التي تمتد منطقة جذبها حتى اسبانيا وانكلترا والمناطق الغربية من المانيا • ولم يكن الايطاليون تجارا ومتعهدين صناعيين فحسب ، بل كانوا صيارفة ايضا • ولقد شرع بعض أهالي بلاسين منذ القرن الثاني عشر ، وبعض أهالي سيين ثم بعض أهالي فلورنسا في القرن الثـــالث عشر ، يتكفلون أكثر فأكثر بالمدفوعات في المعارض ، ويستقرون متجمعين في شركات في بـــاريس ولندن وبروج ، وكذلك في اسبانيا وافريقيا الشمالية ،

---

(١) كانت أول هذه المدن وأهمها ليتبيك Litbeck عام ١١٥٨ •

وفي موريا اليونانية ورودس وقبرص • وكان الملوك والامراء ، وأعضاء الطبقة النبيلة ، والكنيسة والمدن ، مثلهم في ذلك مثل العاملين في التجارة ، زبائنا لهم • وكان ايطاليون آخرون غير الصيارفة قد لعبوا دورا في تجارة الفضة ، وخاصة في القرن الرابع عشر : اولئك هم « اللومبارديون » (وهم في حقيقة الامر من اهالي منطقة بييمون Piemont خاصة) الذين كانوا يقرضون بكفالة ، فيمارسون هكذا الدين بالفائدة الذي كانت الكنيسة تحرمه من دون الاساليب الملتوية التي كان الصيارفة يلجأون اليها ، وبالتالي فقد كانوا موضع حقد مدينيهم من جهة ، والاحتقار العام من جهة اخرى (١) •

وظهر تياران تجاريان آخران ، اذ ان افتتاح

---

(١) كثيرا ما كان يطلق عليهم اسم **الكاهورسيين** ، لان هذه الكلمة اكتسبت في انكلترا في القرن الثالث عشر معنى « المستثمر الاجنبي » ، اذ أن أهالي كاهورس (وهي مدينة في منطقة لو على نهر لو في أواسط فرنسا (المترجمة) لعبوا دورا فعالا بصورة مخصوصة في تجارة هذا البلد ، وأثاروا حركة بغض لهم ، مثلهم في ذلك مثل الفلمنكيين • وفي القرن الثالث عشر ، كان تيار تجاري يستعيد طريق تيار المحيط الاطلسي ، بين انكلترا ولاروشيل ، ويبلغ عن طريق كاهورس البحر الابيض المتوسط وايطاليا ، فاستفادت كاهورس من هذه الطريق مثل استفادتها من التجارة بين اسبانيا ومعارض شامبانيا •

طريق سان غوتار(١) عام ١٢٣٠ سمح أولا لسويسرا الوسطى ووادي الرين أن يصبحا محطتين بين ايطاليا وبحر الشمال ، كما أضحى الاطلسي فيما بعد طريقا يصل شبه الجزيرة الايبرية وشواطىء المانش وبحر الشمال • وكانت مراكب جنوية تبحر منذ عام ١٢٧٧ الى بلاد الفلاندر وانكلترا • ولقد اتسع هذا التيار الثاني مع تطور السوق الالمانية ـ وبمناسبة هذه الفعاليات الاقتصادية في بروج ولندن ، ارتسمت الخطوط الاولية لتنظيم المدن الالمانية في مناطق بحري الشمال والبلطيق ، بل حتى في المناطق الرينانية الويستفالية ، في سبيل الدفاع عن مصالحها • تلك هي « الهانس الالمانية » (٢) المقبلة •

---

(١) احدى الكتل الجبلية التابعة لجبال الالب (المترجمة) •

(٢) الهانس Hanse رابطة للمدن التجارية الشمالية الغربية ، وكانت مدينة ليتيبك تتزعمها ، ويعود تاريخها الى سنة ١٢٤١ • وكانت هذه الرابطة تستهدف حماية المدن الالمانية من قراصنة البلطيق ، وحماية مصالحها الجمركية من الامراء المجاورين• وكانت هامبورغ وبريم وليتبيك وكولونيا في عداد مراكزها الرئيسية• وأصبح هذا الاتحاد السياسي والتجاري ، الذي ازدهر طوال قرون ونشر تجارته حتى مناطق نائية جدا ، يعد ستا وأربعين مدينة في القرن الخامس عشر ، ويملك اسطولا بحريا ، وجيشا ، وخزانة وحكومة مخصوصتين ، تحتكر بحريته تجارة البلطيق ، وتنتشر فروعه من انكلترا حتى مدينة فونفورود الروسية • وان هذا الاتحاد ، الذي بدأ بالانحطاط منذ القرن السادس عشر ، لم يفتح موانئه امام التجارة العالمية الا عام ١٧٢٣ (المترجمة) •

وتطلبت هذه العقود ان تطرح في التداول انواع من النقد أوفر عددا واكثر ثباتا مـن النقود الفضية المتداولة وقتذاك ، فسكت نقودا فضية أفضـل هي « السترلنغ » الانكليزي في نهاية القرن الثاني عشر و « التورنوا الكبير » الفرنسي عام ١٢٦٦ ، كمـا استخدم الذهب الذي عاود ضربه الظهور بقطعة سكت في جنوا عام ١٢٥٢ ، و « بالفلوران » الفلورنسي في نفس السنـة ، و « بدرهم » القديس لويس عـام ١٢٦٦ ، و « بالدوقية » البندقية عام ١٢٦٤ ؛ بيد أن الرصيد ظل على درجة كبيرة من النقص ، اذ كانت المدفوعات عن طريق المقايضة ، في المعارض أو في غيرها من الامكنة ، واستخدم التحويل والاوراق الائتمانية ، تحد جميعا من تنقلات القطع النقدية ٠

وفي اعقاب هذا الازدهار ، كان القرن الرابع عشر وقسم هام من القرن الخامس عشر فترة من الكسـاد بدأت في بلاد الفلاندر حوالي ١٢٨٠ ، بينما الاسعـار الزراعية لم تتردد في فرنسا وانكلترا الا في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ، وكان للنظام التعاوني الفضل في الاحتفاظ بالاسعار الصناعية بصورة مصطنعة تماما في مستوى مرتفع ٠ ونشأت رغما عن هذا الكسـاد تيارات جديدة ، فيما كانت تيارات قديمة تنمـو أو تتحول ٠ فالمدن التجارية الالمانية على شواطىء بحـر الشمال والبلطيق بلغت أوجها في ذلك الحين ، فـكان بحارتها يملكون منذ القرن الثاني عشر مايسمى Kogge

وهو مركب شراعي ذو سطح وجوانب منتفخة بحيث يسهل نقل الحمولات الثقيلة الى مسافات بعيـــدة • وعندئذ أصبح الالمان الموردين الوحيدين تقريبا لعــدد كبير من المنتجات الى الغرب ، كالجعة والشاي والفراء والحديد والنحاس ، الخ • وبروج ولندن الهــدفين الرئيسيين لهذه الواردات • وكان ايجـــار العودة يشمل منتجات متوسطية أو شرقية ، كالجوخ الفلمنكي أو المحاريث ، والجوخ والقصدير الانكليزيين ، والخمر والملح الفرنسيين • وكانت « الهانس الالمانية » موجودة رسميا منذ عام ١٣٥٨ : ان هذا التجمع للمدن الالمانية المتصلة دون انقطاع من الخارج بواســـطة الفروع الهانسية في لندن وبروج وبيرجين ونوفغورود ، قــد منح كل شمالي المانيا سمة خاصة ، وانحفر طابعه في البلدان السكاندينافية والبلطيقية على شكل مزيج مــن روح المبادرة والحرية ، ونوع من الشعوبية ، وهندسة آجرية مخصوصة جدا تشاهد من بريم حتى لوبك ، ومن ريغا حتى ريفال •

وفي القرن الرابع عشر ، وبالخاصة نصفـــه الثاني ، تعاظم الاهتمام الموجه الى بلدان البحر الابيض المتوسط الغربي ، وبالخاصة شبه الجزيرة الايبرية ، من قبل رجال الاعمال الايطاليين ، والجنوبيين منهم على الاخص ، اذ كانت المنطقة الغربية من البحر المتوسط تشرف على مدخل المحيط الاطلسي الذي اصبح طريق الاتصال الرئيســـة مع اوروبا الشمالية الغربية •

وعندئذ فقط اتخذت علاقات جنوا البحرية ، القائمة مع بروج منذ عام ١٢٦٧ على أقل تقدير ، ومع انكلترا منذ عام ١٢٧٨ ، صفة منتظمة • وحذت البندقية حذو جنوا في القرن الرابع عشر ، فشرعت مراكبها تبلغ بروج وأنفرز اعتبارا من السنوات ١٣٦٥ ـ ١٣٦٧ ، كما استخدم الاسبانيون الطريق نفسها ، الكاباليون منهم ، وبالخاصةالماجاركيين والبرسكوفيين والبرتغاليين والكاستاليين • وكانت الملاحة تتم بقوافل بغية الحماية من القراصنة ، وهي قوافل تسير حسب لوائح منتظمة، (وقد مكن اتقانها من الوصول الى الاطلسي) اذ كانت المراكب المسيرة بالاشرعة والمجاذيف تسمح بانتظام في الملاحة يفوق ما كانت المراكب الشراعية تسمح به • بيد ان التجارة الارضيـــة ظلت تتمتع بأهميتها ، اذ كانت حمولة المركب لا تبرح محدودة جدا •

وطرأ تبدل جديد هو التدهور التدريجي لمعارض شامبانيا ، هذا التدهور الناشيء عن عدم الامان الذي كانت حرب المائة عام وتواليهـــا في فرنسا السبب الرئيسي فيه • وكان من نتيجة ذلك ، وبفضل غوتار ، أن تطورت الاتصالات على الطرق اليابسة بين ايطاليا وشمال غربي اوروبا تطورا عظيما ، اذ كانت المحاور البحرية والمحاور الارضية تتلاقى في اتجاه بروج ولندن (التي كانت ساوثامبتون أشبه بميناء متقدم لها) : هناك كان عالم البحر الابيض المتوسط وعالم بحـر الشمال والبلطيق يتلاقيان •

المدن التجارية

كان هنالك تقارب صفة مشتركة ما بين المدن التجارية الايطالية ، والمـدن الفلمنكية ، والعصبـة الهانسية ، ألا وهي كونها جميعـا ، في عالم ملكي واقطاعي ، جماعات مستقلة ، منظمة من اجل الاستعمار الاقتصادي ، بحيث تمثل صورا سابقة عن المجتمعات الرأسمالية في القرن العشرين • وثمة مراقب في هـذا التنظيم : فبلاد الفلاندر هي قبل كل شيء مصنـع ينتظر أن يأتي اليه التجار لاستلام منتجاته الصناعية ، فيما الهانس هي مشروع للنقليات في المحل الاول ، وفلورنسا هي مصرف ومدينة صناعية في الوقت نفسه• وكانت البندقية وجنوا وحدهما (وبيزا ايضا في بادىء الامر) تكملان السيطرة الاقتصادية بامبراطوريـة استعمارية حقيقية • ومن وجهة النظر هذه ، فان بندقية القـرون الثالث والرابع عشر والخامس عشر تشكل صورة سابقة عن انكلترا القرن التاسع عشر ، بمعنى أن الاستعمار هو الذي خلق الامبراطورية في كلتـا الحالتين •

ولقد نمت ممارسة المشاريع الكبرى لذة المسؤوليات الجماعية ، فكان من نتاج ذلك تطور الشعور بمعنى

المؤسسات الحرة . « ان الثروة التي عادت بها على أصحاب المراكب البندقيين والجنوبيين والهانسيين ، وعلى الصناعيين والصيارفة الفلورنسيين أو الفلمنكيين ، عملياتهم المتعاظمة الجرأة والمتزايدة الارباح ، قدمنحتهم ثقة وسلطانا وكبرياء مدنية كانت مجهولة منذ سقوط اليونان وروما » . (١) ولا يعني هذا شعورا « جمهوريا » بالمعنى الدقيق للكلمة ، لكن ما حدث هو تفتح « للشعور المشترك » الذي ظهر في المدن اللومباردية في القرن الثاني عشر وجسده ايتين مارسيل في فرنسا. وان المدن الوحيدة التي تمكنت ان تتجاوز الاستقلال الذاتي البلدي البسيط هي البندقية وجنوا وبيزا وفلورنسا ، (٢) اذ سهلت الفوضى الايطالية منذ وفاة

---

(١) René Grousset : Preface Aux Villes Marchandes Aux xiv et xv Siécle , De Régine Pernaud P. 12

(٢) ان حالة البندقية حالة مخصوصة ، اذ كانت واقعة ، رغما عن كونها لاتينية في الجوهر — على الخط الفاصل بين الهيلينية واللاتينية ، وكان يجب أن تتبع بيزنطة نظريا ، وهذه التبعية النظرية قد حررتها من كل الزام حيال الامبراطورية المقدسة . ان الحرية الفعلية للكومونات الايطالية الاخرى قد أصبحت هنا استقلالا مشروعا — وكانت العصمة الجغرافية للمدينة الجزيرية تضيف الى تلك العصمة القانونية : لقد أصبحت البندقية ، رغما عن صغر مساحتها ، مدينة لم يستطع أي فاتح منذ شارلمان حتى بونابرت أن يخضعها .

فريديريك الثاني حتى انتصار شارل الخامس انطلاق الجمهوريات الايطالية بحيث ان استقلالها وثروتها ، مثلما في ذلك مثل استقلال الهانس وغناها ، مدينـان بالشيء الكثير الى فوضى الامبراطورية المقدسـة .

كذلك اذا كانت الكومونات الفلمنكية قد تراءت لفترة من الزمان على صورة قوى كبرى بين فرنسا وانكلترا ، فذلك لان النزاع بين النظامين الملكيين كان يخنق نداء Le liberts الموجه الى خلفاء فيليب الجميل .

وفيما عدا ذلك ، فقد كانت فوضى أعظم أيضا تسود من ناحية الشرق (حيث تتمه انظار البندقية وجنوا) ومن ناحية الشمال (حيث تنمو الهانس) ، وهي الفوضى التي مكنت البحريات التجارية ، وهي سيدة الشاطىء ، من السيطرة على الارض الظهير Hintuland وكانت الجمهوريات الايطالية والالمانية ، مثلها مثـل البرتغال في القرن السادس عشر ، ومثل هولندا في القرن السابع عشر ، ومثل انكلترا فيما بعد ، تسيطر منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر على مساحات أكبر من ارضها الخاصـة ، لماذا ؟ ذلك ان صناعة الفراء والسمك في الشمال بالنسبة الى الهانس ، والتوابل والاقمشة الثمينة والحجارة الكريمة الشرقية بالنسبة الى البندقية وجنوا ، كانت تدر أرباحا هائلة ، وفيما عدا ذلك لم يكن هؤلاء يعنون ، وقد استقـروا بثبات خلف مكاتبهم ، بالحروب الدائرة الرحى بـين العائلات المالكـة او بالحروب الاقطاعية الا بغيـة

استثمارها . وهكذا بينما كانت بلاطات فرنسا والامبراطورية المقدسة والبلدان السلافية لا تبرح مسرحا للنزاعات المسببة عن ممارسة العطايا الملكية ومصادفات الزواج بين العائلات المالكة ، كانت السياسة الجنوية والهانسية والبندقية تقوم على اساس الواقعية والاستمرار . ولنضف الى ذلك ان عملاء الهانس وجنوا والبندقية ، مثلهم مثل أشباه كليف وفارين هاشنغ(١) في الهند فيما بعد ، قد برزوا في المشرق في الشمال في ساعة انحلال السلطات المحلية . وكانت الدول السكاندينافية في منطقة البلطيق تجتاز حتى بعد اتحاد كالمار مرحلة من الاضطراب ، فاستفادت الهانس من كل نزاع حدث . وفي الشرق لم تجد البندقية وجنوا أمامهما سوى امبراطورية بيزنطة في ملء الانحطاط . وأخيرا كان مثل أعلى يحرك الهانسيين والبندقيين والجنويين ، فينضم الى نداء المصالح : تلك كانت الحرب المقدسة . لقد أسهم أهالي بيزا والبندقية وجنوا اسهاما كبيرا في القرن الثاني عشر في تأسيس مملكة ، اوروشليم ، وكونتية طرابلس ، وامارة انطاكية . « من المؤكد ان الدول الفرنكية ما كانت تستطيع لولا دعم جحافلهم المستمر والسيادة البحرية التي كانوا يوفرونها

---

(١) كليف جنرال بريطاني ساعدت سياسته الحاذقة على تثبيت السيطرة البريطانية في الهند ، وفارين هاشنغ أحد حكام الهند البريطانيين (المترجمة) .

لها ان تقاوم الحرب الصليبية المضادة الفورية ، المصرية او التركية » • (١)

وكانت الجمهوريات الايطالية تحصل ربحا وفيرا من ذلك كله ، فمكاتب الاعمـــال البيزانية والجنوية والبندقية في عكا وفي يافا ، في صور وفي بيروت ، في طرابلس وفي اللاذقية ، تزدهر في ظل قبر المسيح المحرر • وتتظاهر هذه الشركة بين الايمان والتجارة في شيء أكثر من العنف في انعطاف الحرب الصليبية الرابعة ، حين تحولت الحرب ضد الاسلام الى حرب ضد الهرطقة البيزنطية كي تنتهي ، عـــلى البوسفور ، الى تأسيس امبراطورية لاتينية لم تكن أكثر من قناع بسيط لسيطرة البندقية البحرية واحتكارها التجاري في بحر ايجه • كذلك الحـال في البلطيق ، حيث كان احتكار الهانس البحري امتدادا تجاريا للحـرب الصليبية التي جعلت من الفرسان القوتونيين(٢) ومن كتائب حملة السيف Porte glaives ســـادة على بروســيا وليتوانيا واستونيا •

وكانت الاحتكارات المالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر قوى كبيرة فرضت نفسها على الانظمـة الملكية • ففي القرن الحادي عشر سبقت بيزا جنوا فـي اخضاع سردينيا وكورسيكا لسلطانها ، وفي القـــرن

(١) Renégrousset , Op . Cit , P : 17

(٢) Les teutones وهم شعوب جرمانيا القديمة(المترجمة)•

الثاني عشر جعلت بيزا وجنوا والبندقية ، بتدميرها أساطيل الخليفة المصري ، انتصار الحرب الصليبية أمرا ممكنا ؛ وفي القرن الثالث عشر لم تستطع الدول الفرنسية البقاء في سورية وفلسطين الا بفضل استمرار جنوا والبندقية في السيادة على البحار • لكنه سرعان ما انتهت الخصومة التجارية بين الشركات البندقية والجنوية في موانىء سورية اللاتينية الى معارك حامية لم يكن أحفاد بارونات الحروب الصليبية فيها سوى زبائن التجار وجنودهم • كانت القيم الاجتماعية التقليدية قد انقلبت رأسا على عقب ، فممثلوا المصالح الاقتصادية يحلون ارادتهم على الاسياد ، والمصرف يتفوق على القوة العسكرية التي أصبحت مضطرة ، كي تستطيع الاستمرار في القيام بدورها ، أن تسأل المصارف المعونة •

كان مجتمع جدي ينشأ ، مجتمع يبشر بالرأسمالية الحديثة • بيد أن « المدن الحرة » ما كانت على مستوى الازمان الجديدة • واستمرت البندقية في البقاء لاسباب خاصة ، لكن الانظمة الملكية التي أصبحت قوية برقعتها الارضية ومركزيتها الوطيدة ما عادت تطيق ، في الاماكن الاخرى ، لا الاستقلال الذاتي المدني ولا البطريركيات المستقلة • وهذه المدن الفلمنكية تضيع ، وقد ابتلعتها اللورين الجديدة لدوقات بورغونيا ، في امبراطورية شارل الخامس ، ومن بعد في الملكية الاسبانية التي لم تكن جنوا وفلورنسا سوى تابعين طيعين لها • وفي المشرق أفسح الانحلال البيزنطي المكان لامبراطورية

عثمانية لم تكن تطيق آي استعمار فرنكي ، بينما لاذت في الشمال المدن الهانسية بالصمت أمام يقظة الشعوب السكاندينافية التي صيرت البلطيق بحيرة سويدية • وتشكل من جديد مركز للاعمال ، لكن في مكان آخر ، في المقاطعات النيبرلاندية وفي انكلترا •

البورجوازيّون

لقد أشرنا آنفا الى البورجوازيين • وان تطورهم سوف يشكل أحد محاور تاريخ المجتمعات الاوروبية •

ظهرت كلمة **بورجوازي** للمرة الاولى عام ١٠٠٧ • وخلال العصر الوسيط المتقدم ، كانت كلمة Burg تعني المكان المحض ، وكلمة Burgensis ذاك الذي يقطن مكانا محصنا ؛ لكن البورجوازي لم يعد ، منذ القرن الحادي عشر ، سوى ذاك الذي يسكن المدينة ، ولم تعد المدينة بالضرورة مكانا محصنا • ولقد كان اقتصاد العصر الوسيط اقتصادا ريفيا في جوهره ، يقوم على أساس استثمار الملكية فيما يتعلق بحالة الثروات ، وعلى أساس العلاقات بين قاطني نفس الملكية فيما يتعلق بحالة الاشخاص • وكانت الارض تشكل ثروتهم ، فيمارس كل منهم على هذه الارض حقوقا قمينة بأن توفر له معيشته ، لكنها حقوق مختلفة ،

ومتراتبة جـــدا وفقا للعادات • وان ما يميز هـــذه الحقوق ، مثلما يميز **روابطها المتبادلة** ، هو صلتهـــا بالارض ، بالاقطاع Fief الذي أعطى اسمه الى النظام الاقطاعي • وكان الزام واحد يقيد طرفي هذا التراتب ، ألا وهو عدم مغادرة الارض ـ فالرق لا يحق له هجرانها ، كما لا يحق للسيد بيعها ، ولم يكن ثمـة من يستطيع الادعاء بأنه المالك المطلق لهذه الارض بالمعنى الذي نفهمه اليوم للملكية • كذلك كانت العلاقات بين الاشخاص **تعقد في ارتباط مع الملكية** ، فهي روابط بين رجل ورجل ، مؤسسة عـلى التعهد المزدوج **بالاخلاص والحماية** • لقد تغلبت الحاجة الى الطمأنينة على الرغبة في الحرية الفردية •

لكن البورجوازي عمد الى قطع علاقاته مع الملكية التي ما عادت تشكل بعد الآن اطار حياته • ان جميع الكلمات التالية : Manoir (مسكن السيد) ، و Mas (مســـكن الفـــلاح) ، و Manse (الارض التي يزرعها) ، و Manant (التعبير الذي يدل عليه) • مشتقة من Moncre (أقام)• لقد سعى الناس قبل كل شيء الى الاستقرار • لكـــن أناســـا كانوا يريدون كسب حيـــاتهم بالتنقل ، هم وبضائعهم ، كانوا يقصدون الخروج من الملكية وتأمين طمأنينتهم بطريقة غير اللجوء الى **معونة** السيد • وهكذا نشأت الحركة الكومونية Mouvement Communal

التي وطـــدت البورجوازية بهـا وجودها وهي تفصم علاقاتها بالملكية ٠

« كان المجتمع الاقطاعي يرتكز على القسم ، على الالتزام بين رجل ورجل ، ومثلما كان التابع يقسم يمين الولاء للسيد ، فقد أقسم البورجوازيون يمين الولاء فيما بينهم ٠ ولقـــد شبهت الكومونـــة ، أو الاقطاعيـــة البورجوازية ، بولاية جماعية ، واولئك المشتركون فيها لم ينكروا شيئا من القيم المعتبرة في أيامهم قيما جوهرية : فالالتزام المتبادل والعهد المقطوع شيء مقدس ٠ لكنهم طبقوا هذه القيم على وضع جديد ٠ »(١) كانوا يعتبرون من الضرورة بمكان تأمين استقلالهم حيـال سيدهم ، وكانوا ينوون بعدئذ أن يكفوا أنفسهم بأنفسهم ٠ ومثال ذلك أن النص الذي أوجد كومونة سان كانتان يعلـن ما يلي : « يستطيع كائن من كان ، من أي مكان أتى ، اذا لم يكن لصا ، أن يعيش في الكومونة ، وحال دخوله المدينـة لا يستطيع انسـان القبض عليه أو معاملتـه **بالقوة** ٠ » كان الباب مفتوحا أمام الجميع ٠ بيد أن القادم الجديد لا يستطيع البقاء في المدينة دون أذن من العمدة ومـن الحكام المحليين ـ كان القسم الكوموني يربط بحزم اولئك الذين يقسمونه(٢) ٠ ولقـد تكرر

---

(١) Rogine Pernoud , Op , Cit , P : 28

(٢) راجع Petit - Dutaillis , Les Communes Francaises p . p : 70 et Suiv

صك التحرير هذا على ألوف النسخ ، وبأشكال شديدة التنوع ، وان لم تكن هذه الحركة نتيجة جهد متفق عليه ، على غرار الجهد الذي يمكن أن يقوم به اليوم حزب سياسي : فحيال أمر لم تكن العادة تتوقعه يرتكس الناس بأفضل أسلوب قمين بادخال هذا الامر الجديد في الوجود ، أو التوقي منه على العكس . كان البورجوازيون يبحثون ، حيثما اجتمعوا ، عن السبل الكفيلة بتأمين وجودهم ، أكان الامر يتعلق بتأمين التداول الحر لما يحتاجون اليه من بضائع من أجل تجارتهم أو حرفتهم ، أو بالدفاع عن مدينتهم ، أو تطبيق العدالة فيما بينهم ، الخ . وهكذا وجد البورجوازي بعد خروجه من الملكية التي كانت تشكل التجمع الاصلي ، بل التجمع الوحيد الذي عرفه المجتمع الاقطاعي في أوائل وجوده ، شكلا آخر من التجمع انخرط فيه . ولعل هذا الميل الى الانخراط في جماعة يفسر حتى درجة ما باهتمام البورجوازي بالدفاع عن مصالحه ، لكنه يفسر على الاخص بالشعور الاكثر أو الاقل وعيا بأن حياة الجماعة توازن حياة الفرد ، وهو ما يفسر أحد المظاهر الاساسية لما جلبته المسيحية : فقد كان هذا المفهوم عن الفرد وعن الجماعية مزدوجا ، وكل من عنصريه يسهم في ازدهار العنصر الآخر ، فلا عجب أن يتشرب به عصر مسيحي بصورة عميقة . كان ذلك الذي يقصد المدنية ليعيش فيها ، منفلتا من التجمع الطبيعي الذي تشكله الملكية الريفية ، يسعى بصورة عفوية الى تكوين جماعة أخرى بقصد تأسيس طمأنينة

الشخصية ، المادية والروحية ، على قواعدها • ولقد اظهر البورجوازي ، منذ نشأته في بيئة لم يكن بد من تجديد كل شيء فيها ، ما سوف يصبح احدى الميزات الغالبة في الحضارة الاوروبية ، ألا وهي قدرة مدهشة على التكيف • وتبدت هذه القدرة على التكيف منذ البدء ، اذ أن الجماعة التي حلت مكان السيد وجدت نفسها ملزمة باتخاذ مكانه في سائر المهمات التي كان عبئها يقع حتى ذلك الحين على كتفيه : الدفاع عن المدينة ، تطبيق العدالة ، النظام المالي ، الخ • وكان لذلك أهمية خاصة لان صفة البورجوازي المميزة كانت كسبه لمعيشته لا عن طريق الارض المزروعة بل عن طريق المبادلة وتحويل المنتجات ، بينما كانت الملكية الريفية توفر الغذاء طوال العصر الوسيط المتقدم لسائر اولئك الذين يعيشون فيها • وذلك ما يفسر كيف أصبحت المدينة وحدة اقتصادية جديدة • « اذا كان دور المدن في التنظيم السياسي أعظم في العصور القديمة منه في العصر الوسيط ، فان **نفوذها الاقتصادي** بالمقابل قد تجاوز في العصر الوسيط مثيله في العصور القديمة بخطوات قديمة • » (١) لقد كانت المدن التجارية الكبرى نادرة نسبيا في المقاطعات الغربية من الامبراطورية الرومانية : نابولي ، ميلانو ، مارسيليا ، ليون ، ولم

---

(١) Hemsi Pierenne , villes et inshitutans Urbaines

يكن ثمة ما يقارن بموانىء مثل البندقيــة ، وبيزا ، وجنوا أو بروج ، وبمراكــز صناعيــة مثل ميــلانو ، وفلورنسا ، وايبردغان ، كما أن الاهمية التي بلغتهــا في القرن الثاني عشر مدن قديمة مثل اورليان وبوردو وكولونيا ونانت وروان قد تجاوزت كثيرا أهميتها ابان حكم القياصرة ٠

وتوصل هــؤلاء البورجوازيون الى تشكيل قــوة اجتماعية سوف يسهم انطلاقها ، على مستوى آخر ، في تحديد وجه اوروبا ٠ لقد كانت انتفاضة بروج عـــام ١٣٠١ ضربة موجهة ليس ضــد السلالات البورجوازية فحسب ، بل ضد سلطة ملك فرنسا أيضا ، وسجلت بداية الصراع المديد الذي خاضــه هذا الاخير ضـــد الكومونات الفلمنكية ٠ وفيما وراء هذا الصراع ، ظهر اهتمام جديد في دراسة الحقوق الرومانية ٠ فسرعان ما اكتسب اكتشاف هذه الحقوق بنتيجة دراسة الاحكام التي احتوتها مجموعة الشرائع والفتاوى والدساتير التي عممها جوستينيان ، وهي الدراسة التي كانت جامعة بولونيا تغذيها (١) ، تأثيرا قويا على الافكار السائدة في ذلك الزمان ، كما طفق الناس في مونبلييه ، هذه الابنة الفكريــة لبولونيا ، يدرسون بكل حمـــاس مجموعة

---

(١) كانت هــذه الجامعة المركز الرئيسي لدراســة الحقوق الرومانية في العصر الوسيط ٠

قرارات القضاة الرومان الشهيرين (١) • « لقد حددت هذه الحركة ، جنبا الى جنب مع اكتشاف أرسطو مجددا ، تيارا في الدراسات الفلسفية اخترق الحياة السياسية • وكانت دراسة الحقوق هذه الدراسة العلمانية المفضلة• وفي نهاية القرن الثالث عشر أعلن حق التشريع في كل المملكة : كان الفقهاء قد اكتشفوا مفهوم السلطة العامة • فالنصوص الرومانية تقدم ، بصورة معارضة للمفهوم الاقطاعي عـــن شخصانية العلاقات بين البشر ، فكرة سلطة عامة هي بدهية تشريعية تجد في ذاتها تبريرهــا القانوني ولا تتطلب أي عقد في سبيل تحقيقها • ولم يعد الملك بعد الآن سيدا Souverain ، بل مولى Suzerain • وكان أرسطو يعلم في الوقت نفسه وجوب اعتبار المجتمع حادثا من المرتبة الطبيعية وليس نتاجا للتعاون بين الارادات ، وفلسفة قائمة على هذه الفكرة تؤدي بالضرورة الى اعتبار الروابط الشخصانية التي تميز النظام الاقطاعي بآلية باطلة • ومن المؤكد ان استنتاجات القـــديس توما والمدرسيين الآخـــرين تختلف عن استنتاجات الفقهاء ، فقـــد كانوا يعطون أساسا أخلاقيا للغريزة الاجتماعية ، محتفظين بمفهـــوم

---

(١) هناك عالم آزون الشهير الذي عرف كتابه Somme الشهرة دون أن يكون له مع ذلك أهمية كتاب أكورس Accurse الذي يحمل عنوان Glose والذي كان الكتـــاب الاساسي لجميع طلاب الحقوق •

« الخير المشترك » بدلا من مفهوم « الخير العام » • غير ان الاتجاهين كانا يتكاملان كي يعطيا المجتمع قاعدة أخرى غير الميثاق المتبادل والعهد المقطوع • لقد أعطى دانتي حقا نهاية النظام عندما نادى بضرورة النظام الملكي •

ومن جهة أخرى ، فقد تشكل مفهوم الدولة وتقوى في الصراع ضد الكنيسة • كانت فكرة « السلطتين » قديمة ، لكنه كان من الصعوبة بمكان المحافظة على هذا التمييز في الممارسة • ولم تفعل الخصومات بين فيليب الجميل وبونيفاس الثامن سوى تتويج مجموعة من الوقائع والافكار التي كانت قد تطورت في سياقالقرن ، وقد كانت الخصومات التي كثيرا ما أدت الى التعارض بين الكومونات والاساقفة صورا سابقة عنها • كانت القضية هي قضية تحقيق مفهوم السلطة العامة في الممارسة ، فما كادت الكومونات تتوصل الى بعض السلطة ، سواء في بلاد الفلاندر ، او في ايطاليا وألمانيا أو في شمال فرنسا ، حتى كان الاتجاه يندفع نحو اخراج رجال الكنيسة من الوظائف العامة • وبهذا المعنى كانت الكومونات تمثل الشكل الاول من الحكومة العلمانية •

وكان ايتين مارسيل على وشك أن يحقق ما فات أرتوالد ان يحققه في بلاد الفلاندر ، ألا وهو الاستيلاء على السلطة بواسطة اتحاد بين الكومونات • وكانت

محاولته تقوم في فرض البورجوازية على المحيط الملكي واحلالها محل أحفاد الاقطاعيين الذين كان الملك يعين مستشاريه من بينهم دائما . لكن ما حدث هو تطور مختلف جدا ، اذ كان البورجوازيون المثريون يطمحون بالاحرى الى الوصول هم أنفسهم الى النبالة ، بحيث جعلوا من أنفسهم عملاء السلطة الملكية ما دامت عملية منح النبالة تأتي على الاغلب في أعقاب ممارسة وظيفة رسمية . ولا شك أنهم كانوا يبحثون عن المناصب والنفوذ ، لكن عن الاستقرار في الوقت نفسه . كانوا يريدون ، في زمن تهدد التبدلات النقدية المفاجئة ثرواتهم فيه ، أن يتحرروا من تقلبات المال ، وأن يحصلوا بالتالي على أطيان (الامر الذي يفسر كل سياستهم المتعلقة بأمور الزواج) . ولقد حملوا أفكارهم شيئا فشيئا من مستوى الكومونة الى مستوى الامة .

البرلمان

توجد أول محاولة للبرلمان في القرار الذي اتخذه فيليب اوغوست قبل رحيله الى الحرب الصليبية ، اذ أمر عام ١١٩٠ أن ينعقد أثناء غيابه مجلس قضائي في باريس مرة كل أربعة أشهر . غير أن البرلمان ، يعني محكمة العدل العليا ، وهي ما كان يدعى Curio Regis in Parloments ، لم يتشكل في فرنسا

الا في عهد فيليب الجميل • والى العصر نفسه يعـود تنظيم الادارة المالية • وظهـــر ديوان المحاسبات الى الوجود عام ١٣٠٣ ، فيما تكامل التفاف جهاز كامل من الموظفين حول الملك بانشاء وزارة للعدل قوت من وحدة ذلك الجهاز • ومن جهة أخرى تميز هذا الجهد في سبيل المركزية باصلاح عسكري كبير • ذلك أنه لم يكن في المرحلة الاقطاعية جيش بالمعنى الحقيقي للكلمة ، بل كان كل من الاسياد يخوض معركته الخاصة مجنـدا ومجهزا الجنود لحسابه الخاص ، ولم تتضح الحاجة الى الاستعانة بجيش دائم(١) الا في عهد فيليب الجميل • وكان التجنيد العسكري ، فيما عدا ذلك ، يقترن بجباية مالية ، اذ عممت هذه الجباية الخدمة العسكرية أو جزية معادلة على كافة مناطق المملكة ، الامر الذي كان شيئا مستجدا في ذلك العصر : لقد أعلن الامر الملكي الصادر عام ١٣٠٤ ، وهو أول تدبير عـــام يتخذ في الشؤون العسكرية ، الانتقال من الجيش الاقطاعي الى الجيش الوطني • ولقد حدث ، بصورة متوازية مـع هذا الشمول للخدمة العسكرية ، امتداد لجباية الضرائب بحيث شملت « المملكة برمتها ، وشملت ضمن حدود

---

(١) ان قضيتي آراغون والفلاندر ، وتجدد النزاع مع انكلترا ، قد تطلبت جميعا عمليات واسعة النطاق ، وكانت الحاجـــة الى المال ناشئة في المحل الاول عن المتطلبات العسكرية •

هذه المملكة سائر رعاياها » . (١)

كانت أجهزة الدولة توضع تدريجيا في اماكنها ، والنداءات توجه في الوقت نفسه الى الرأي العام . ولقد كان فيليب الجميل سباقا الى استدعاء الجمعيات في طول المملكة وعرضها ، وهي جمعيات تتجاوز حـدود الملكية وتختلف كثيرا عن الجمعيات الاقطاعية القديمـة أو عن المجالس الاستشارية التي طلب القديس لويس بواسطتها رأي بعض المدن الكبرى قبل أن يصدر أمره الملكي بشأن النقـود ، هل كانت هـذه « الجمعيات العامة » بشائر عن البرلمانات الحديثة ؟ انه لمن المخاطرة أن نجيب على هذا السؤال بالايجاب . ومهما يكن من أمر ، فمما لا ريب فيه أن هذه الجمعيات لعبت دورا فعليا في المملكة ، وأنها كانت قائمة على أساس النظام الانتخابي ، بحيث لم يكن الاساقفة والنبلاء يستدعون بصورة فردية اليها ، بل ينتخبون انتخابا ، مثلهم فـي ذلك مثل ممثلي الطبقة الثالثة . ومن المؤكد أن هـذا كله يدلل على نفوذ الروح الشرعية الى الاذهان .

لقد كانت المواثيق والاعفاءات الكومونية تعلن عن تحرر الفرد وارتقائه الى مرتبة المواطن . ويزيد مـن أهمية هذا الحدث تلك الحركة التحريرية التيسيطرت على التاريخ الانكليزي قبل قرن من الزمان . لقـد

---

(١) Feurties , D'europe Accidentale De 1270 - 1380 Dans L'Histoire Gènèrale De Glotz P : 203

أعطت معركة بوفين(١) البارونات الانكليز الجرأة على النصر وكرست في الوقت نفسه دمار امبراطورية آل بلانتاجنيت (٢) ، بحيث اضطر يوحنا الذي لا أرض له (٣) أن يوقع في ١٥ حزيران ١٢١٥ الميثاق الكبير للحريات الانكليزية · ولم يكن هذا الميثاق دستورا جديدا بقدر ما كان تأكيدا مهيبا للحريات الانكليزية القديمة · كان يذكر بالوعود التي قطعها هنري الاول وايتين وهنري الثاني في مواثيق أعطيت بكل حرية لدن صعودهم الى العرش · وكان الميثاق يعدد أعمال العنف التي لا يجوز للملك اقترافها : انه لن يتدخل في انتخابات الاساقفة والقساوسة الحرة ولا في القضاء الكهنوتي ، ومن يسيء استخدام حقوقه كملك كي يغتصب المال من اليتامى والنساء أصحاب الحق في الاقطاعيات ، ولسوف تصدر الاحكام محاكم تجتمع مرة كل ثلاثة أشهر ، ولن

---

(١) بوفين Bouvines ، بلدة تقع الى شمالي مدينة ليل في فرنسا ، وقد انتصر فيها فيليب اوغوست ، بمساعدة احتياطي الكومونات الفرنسية ، على الامبراطور اوتون الرابع وحلفائه عام ١٢١٤ (المترجمة) ·

(٢) Plantegenêts ، السلالة المالكة في انكلترا منذ هنري الثاني حتى اعتلاء هنري السابع العرش (المترجمة) ·

(٣) Sèan Sans Terre ، ملك انكلترا (١١٩٩ ـ ١٢١٦) ، هزم في فرنسا وجرد من املاكه فيها ، ولما عاد الى انكلترا منح البارونات والبورجوازية الميثاق الكبير للحريات الانكليزية (المترجمة) ·

يجوز جبـــاية أي ضريبة دون موافقـة مجلس المملكة المشترك (يعني جمعية الاساقفة والبارونات) ، كمـا سوف تنتخب لجنة من خمسة وعشرين بارونا تكـون مهمتها مراقبة الملك واجباره على احترام وعوده • وكان الميثاق الكبير يهم سائر طبقات الامة ـ وعلى أي حال فان البارونات لم يحملوا السلاح بدافع الانانية الطبقية ، وهم قد حصلوا دونما عنـــاء على تحـالف الاكليروس والبورجوازيين منهم • ولسوف يصبح الميثـاق الكبير منذ ذلك الحين أساس الحريات الانكليزية • واذا هو لم يحمل جديدا في طياته ، فانه كان يقدم لمطالب رعايا الملك تأييد نص واضح ، بحيث ما عادوا مضطرين الى التذكيـر في غمـوض بعادات ادوارد المعتـرف وهنري الاول ، تلك كانت اول وثيقة اوروبية تؤكد ، في وجه الامير ، حقوق الامة •

ولقد اتخذت حقوق الامة هذه شكلا برلمانيا • انه لمن الواجب البحث عن الاصول البعيدة للبرلمان الانكليزي في جمعيـــات الساكسون الشـعبية وما كان يسمى wite - Nagemot ، وهو نوع مـن المجالس كانت تساعد ملك الممالك السبع(١) • وقد حمل النورمانديون

---

(١) Heptarchie ، وهو الاسم الذي كـان يطلق على الممالك السبع المؤسسة في القرنين الخامس والسادس في بريطانيا • ولقد انهكت هذه الممالك بعضها بعضا في حروب متصلة حتى وحدها اغبرت اخيرا في مملكة واحدة ، هي انكلترا ، عام ٨٢٧ (المترجمة) •

اليها ، اثر الغزو ، مؤسسات البلاطات الاقطاعية ، أولا مؤسسة Curie ، ثم ما كان يدعى Cansilium . ولم يبدأ المؤرخون باستخدام كلمة برلمان الا حوالي عام ١٢٣٩ ، وفي عام ١٢٦٥ تم ايجاد تلك المؤسسة بصفتها برلمانا بالضبط : ومن ثم فان ما كان في كانون الثاني من عام ١٢٦٥ مجرد وسيلة غير عادية للخروج من المأزق قد أصبح القاعدة السائدة . وتألف البرلمان من مجلسين : مجلس العموم الذي يؤلفه النواب المنتخبون من قبل طبقة النبلاء الصغار في الملكيات الاقطاعية ومن قبل البورجوازيين في المدن ، ومجلس اللوردات الذي يضم البارونات الكبار والاساقفة الذين كانوا يتلقون من الملك دعوة خاصةوالذين كان يتوجب عليهم الحضور شخصيا .. ولقد دخل البرلمان ، بعد الحكم المطلق لعهود هنري السابع وخلفائه ، في صراع مع العرش وانتصر في ثورة عام ١٦٤٨ .

ولسوف تحذو اوروبا كلها ، في شؤون المؤسسات السياسية ، حذو البرلمانية الانكليزية بصورة تزيد أو تنقص ــ وفي بعض العصور سيكون لهذا التأثير دور حاسم .

الاستصلاحات الكبرى

لو جرى في اوروبا في القرن الحادي عشر احصاء مهني للسكان ، فالمرجح أنه كان يبين أن تسعين بالمائة

من الناس يحيون في الريف ويستدركون وسائط معيشتهم من الزراعة والصيد او المصابة ، وان المدن التي يتجاوز عدد سكانها عشرة آلاف نسمة قليلة جدا ٠ ولوأخذت صورة فوتوغرافية في الجو عام ١٠٠٠ لكشفت عن قرى مبعثرة تصل ما بينها الانهار أو دروب غير واضحة المعالم وتفصل ما بينها مساحات شاسعة من الاراضي العراء والغابات والاراضي البور والمستنقعات ٠ ولو أخذت هذه الصورة نفسها بعد ثلاثمائة عام لاظهرت أن القرى قد كبرت وتكاثرت ، وأن اوروبا الوسيطة قد وسعت حدودها باستصلاح اراضي جديدة وضح مائها واعمارها ٠ « لقد بدأ عصر جديد حوالي عام ١٠٥٠ ـ وربما قبل هذا التاريخ بقليل في بعض المناطق المحظوظة بصورة خاصة ، كالنورماندي وبلاد الفلاندر ، وبعده بقليل في أنحاء أخرى ـ عصر لن ينتهي الا حوالي ختام القرن الثالث عشر ٠ ذلك هو عصر الاستصلاحات الكبرى ـ العصر الذي تحققت فيه ، كما تشير جميع المظاهر ، أكبر زيادة في الاراضي المزروعة كانت أرضنا مسرحا لها منذ الازمان قبل التاريخية ٠ »(١) لقد ترددت أعمال الحراثة حتى ذلك الحين أمام الشجرة ، وماكانت الادوات المستخدمة تسمح على أي حال بازالة الغابات ٠ وفيما عدا ذلك ، فقد كانت هذه الغابات تسهم في المعيشة ، فالخشب نفسه يستخدم في التدفئة والبناء واللوازم الزراعية ، والاشنيات والاوراق الجافة في

---

(١) More Bloch : Les caroetéres Originaux de l'histoire rurole Francaise . P : 5

مفارش الحيوانات ، والثمار في الغذاء ، الخ • وكانت هذه الغابات مسارح للرعي في الدرجة الاولى • ومما لاريب فيه ان أسنان الدواب وأيدي « لصوص الغابات » قد هيأت عمل الاستصلاح وهي تخلخل الشجرة وتضعفها ، بيد أن الادغال الكبرى كانت لما تبرح بعيدة جدا عن الحياة الجماعية بحيث تعنت عادة من التنظيم الخوراني الممتدة شبكته الى كل المنطقة المأهولة • لكن الاهتمام اتجه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الى ادخال تلك الادغال في هذا التنظيم ، فاخترقتها الاراضي المحروثة وملأها المزارعون المقيمون ، بحيث تحول العديد منها الى أشلاء وأسمال •

وكانت الاديرة تشكل المنظمات الاولى التي يجري عملها على حدود الممالك • ولم يكن بناء جميع هذه الاديرة البنيدكتية يتم في مناطق متوحشة ، لكن الرهبان في كل مكان كانوا يكرسون أربع الى ست ساعات يوميا من أجل ضح الماء ، وقطع الاشجار ، والحراثة • وفيما بعد جاء المعمرون يقيمون حوالي الدير يجتذبهم الامان ووجود سوق جديدة : لقد كان تأسيس الدير في معظم الاحيان عملية استعمار ، وما بدأه البنيدكيتون كمله السيستركيون(١) بصورة منهجية ، ولقد كانت أفضل

---

(١) نسبة الى Citaus ، وهي قرية على الساحل الذهبي أسس فيها روبير دي موليسم عام ٧٨ •• جماعية دينية تنتسب الى فرقة القديس بنوا ، وبنى فيها ديرا على طراز خاص (المترجمة)•

الاماكن قد شغلت وقيمة الارض قد زادت لدى ظهور هؤلاء السيستركيون ، فاضطروا أن يقيموا في الاماكن الاقل صلاحية ، كوديان انكلترا الشمالية ، واسكوتلندا ، وحدود بلاد الغال ، والمساحات الرملية المحيطة بخليج غاسكونيا ، او تلك الحدود العرقية التي كان الجرمان يصدون على طولها السلافيين بكل عناد ·

كان شارلمان قد دفع فتوحاته حتى مجرى نهر الالب الادنى وحتى السول والدانوب الاعلى · ونشطت الحركة من جديد في القرن العاشر ، وأصبحت عاتية لا تقاوم في القرن الثاني عشر · وكانت كل غزوة يعقبها تأسيس مكان محصن ينتهي اسمه بكلمة Burg (حصن) · وكان البلد يقسم الى مارشات (١) يوكل أمر كل منها الى مدير Morgroue · وكانت الاسقفيات تشكل ، والاديرة تؤسس ، والنبلاء يحصلون على الاراضي ويسعون أن يجتذبوا المستوطنين اليها · وفي القرن الثالث عشر ، كانت جرمانيا مستثمرة حتى حدود الفيستول الادنى ، وقد علت المراكز الحراجية بمزارع وكروم وملايين القرى · ومن ثم تجاوزت الحدود نهر الفيستول ، فغزا فرسان النظام التوتوني والفرسان حملة السيف ليفوثيا ، وبروسيا ، وليتوانيا واستونيا · وتوقفت هذه الحركة نحو الشرق حوالي عام ١٣٥٠ ، اذ امتصت المدن المتوسعة سكان المانيا

---

(١) نقلنا الكلمة الفرنسية كما هي الى العربية : Marches وقد كان قديما يشار بها الى المقاطعات العسكرية القائمة على حدود الامبراطورية ، والموكول اليها أمر الدفاع عن هذه الحدود (المترجمة)·

الغربية ، كما نقصت الموارد في الاراضي أو استخدمت من قبل السكان الاصليين • وفي عام ١٤١٠ سحق النظام التوتوني في معركة تاننبرغ مع بولونيا ، فما عاد يحتفظ سوى ببروسيا الشرقية حيث واصل سياسة استعمار صغير لغابات الجنوب الكبرى • وأدت هذه الهجرات الالمانية الى زيادة السكان في المناطق القليلة السكان ، والى تحسين الاساليب الزراعية ، والى فتح منافذ جديدة للفعالية التجارية • وتوقف هـذا التوسع في منتصف القرن الرابع عشر ، فانقطعت الموارد عن النمو وانهارت الاسعار • أهي الغزارة الفائضة في الارباح ؟ ربما ، لكن التوسع تطلب أيضا استخدام رساميل ضخمة بحيث وجد كثيرون من الملاكين (حتى السيستريكين) أنفسهم وقـد أصبحوا مـدينين • ولعبت التحولات السياسية دورها أيضا ، بحيث تقلصت سلطة وموارد وأملاك الارستقراطية القديمة ، وحتى الكنيسة نفسها في بعض الاحيان • وبرز ملاك جديد شيئا فشيئا الى الوجود : انه بورجوازي أو شريك صغير في الزراعة ـ وهو ما سمي Junker في ألمانيا ، و Squire في انكلترا ؛ ذلك انسان جديد يريد التخلص من بقايا النظام الوسيطي •

وثمة حـدث جوهري بالنسبة الى الحضـارة الاوروبية ، اذ يرجـع الى تلك المرحلة تاريخ نشـوء نموذجين مـن البنيات الزراعية : الحقول المفتوحة والمتطاولة والحقول المفتوحة وغـير المنتظمة ، بكل ما تتضمنه هاتان البنيتان من علف جماعي عديم الجدوى

وتناوب اجباري في الزراعة ، الخ ، (وهي عمليات مقيدة لحق الملكية) . ان بعض ملامح الارياف الاوروبية قد تكونت في تلك المرحلة(١) .

الجهد الفكري

لعل ملذات المائدة والصيد كانت تنقذ الاسياد من الضجر ، بيد أن نساءهم كن في حاجة الى المسليات ـ وقد تطورت الحياة الاجتماعية والشعر بفضلهن ، هن اللائي كانت المسيحية ، على خلاف الاسلام ، تعتبرهن مساويات للرجال . ولا شك ان هذا الادب لم يكن هو السباق الى الظهور في اللغات القومية الفتية، بل سبقته الاغاني التعبيرية . بيد أن لهجته كانت تختلف اختلافا كبيرا عن الملاحم القاسية السابقة : فقد كانت « الكياسة » تحتل مركز الشرف في هذه الحياة الخاصة بالقلب والنفس التي مصدرها النساء ، في هذا « الفن الجديد » المهدى اليهن . واذا كان شعراء تلك الايام ، سواء الى جنوبي نهر اللوار ، أو في فرنسا الشمالية وانكلترا ، أو فيألمانيا ، يمجدون أحيانا الحرب وبطولات البارونات ، فانحبهم « لسيدتهم » هو ماكانوا يعلنونه شعرا في أغلب الاحيان . وكانت قصائد لاحصر لها ، دقيقة الصياغة جدا ، تصف سائر المواضيع الغرامية الممكنة ، كما كانت القضايا العاطفية تناقش شعرا في « مجالس الحب » أمام محكمة مؤنثة تمنح الجوائز والاكاليل . ودب في الاساطير القديمة نغمجديد

(١) راجع André Meynier : Les haysages orgines

تجاه هذه النسمة ، فأعاد شاعر فارس نمسوي حوالي عام ١٢٠٠ كتابة « قصة سيغفريد وبردنهايلد » بعد تكييفها وفقا لذوق المجتمع « الراقي » : وهكذا اجتاز نشيد نيبيلونجن الدهور ٠ وما كان الامـراء الكبار أنفسهم يترفعون عن النظم والانشاد ، فألفونس الحكيم الكاستالاني أشهر الشعراء الجوالين ، كما أن فينيسلاس ملك بوهيميا قد جعل من الغناء الشعري ، بفضل أناشيده العشقية ، تقليدا لم يبرح سائدا على ضفاف الدانوب حتى السنوات الاولى من القرن الرابع عشر ٠ كان هذا الاهتمام بالحب ـ هذا الذوق ؟ ـ جديدا في الغرب ، واذا هو كان يتحدر في الاحايين من الشعر العربي ، فقد لامسته الصوفية المسيحية بانعكاسات ولقد انضم الكثيرون تحت لوائه كي يتبعوا الزي السائد ، وقليلون هم الذين تبنوه بحافز من الشعور الحقيقي ٠ لكن الرمزية « الكلية » اجتاحت الادب الاوروبي لقرون عديدة ، ولم تزدهر في أي مكان أفضل منها في الرواية « الكلية » هي الاخرى ، تمزج في لحمة واحدة مغامرات واقعية أو وهمية وتقاليد سلتية قديمة جدا صبغت بالصبغة المسيحية ٠ وكان لقصيدة «الكأس المقدسة » دوي بعيد جدا لا يقل عما كان لغراميات تريستان وايزولت ٠ فمنذ المسيحي ابن مدينة تروا الذي نظم تلك القصيدة للمرة الاولى ، الى ولغرام فون ايزنباخ وحتى ريتشارد فاغنر ، لن يكف تكريم الشعر لابطال الكأس عن الدوي ٠٠٠

وفي تلك الازمان التي لا يمكن لاي صورة الادعاء

بأنها تمثلها وحدهـــا ، حين كانت جنوا تذهب حتى شواطىء البحر الاسود بحثا عن العنبر والفـــراء ، والبندقية تتمون في سورية ، والمعارض الكبرى تتخذ صـــورة اللقاءت الاوروبية الاولى ، والحب يتسرب الى الادب ، والفلاحون يوسعون حدود أراضيهم على حساب الاحراج ، الخ ٠٠٠ كانت بشائر حركة كبيرة تلوح في الافق ، ماذا تعني مثلا شهرة معرض لاندي بخصوص اللوازم الجامعية ، هذه البضاعة الثمينة جدا ؟ كان ذلك يعني أن التعطش الى المعرفة ، النامي أبدا ، أصبح يتطلب في القرن الثالث عشر امكانيات أكبر دون انقطاع٠ ان المدارس التي يشرف الاساقفة عليها قـــد تطورت كثيرا منذ القرن الحادي عشر وأصبحت تهز وصـــاية هؤلاء الاســاقفة ، فالاســاتذة والطلاب ، عـــلى غرار البورجوازيين في المدن ، يتحدون ويطالبون « لجامعتهم » بالحق في ادارة مستقلة ، وهي محـاولة كان البـــابا يؤيدها ٠ وهكذا حصلت جامعة باريس على خاتم خاص بها من دون أي كومونة مطلقا ، وذلك منذ عام ١٢٢١ ٠

لم يكن شيء أقل قومية وأكثر اوروبية من تلك المراكز التي يتلاقى فيهـا أساتذة وطـلاب قادمون من مختلف البلدان ٠ ان لغة واحدة ، اللاتينية ، توحـد ما بينهم ٠ ولم تكن الجامعات تتميز عن بعضها بعضا الا باختصاصاتها ٠ ففي ايطاليا كانت جامعة بولونيا ، حيث يدرس المعلم رولاندينو ، تمحص الحقوق الرومانية في مجموعات كبيرة لجوستينيان عثر عليها في مدينـة بيزا في القرن الثاني عشر ٠ وكانت جامعتا كمبردج

واكسفورد الانكليزيتان تتسعان حتى صـارتا مدينتين حقيقيتين • وكان الرهبان الفرنسيسكان ، وقد نبذوا ما كان مؤسس نظامهم يكنه للمعرفة مـن احتقار ، يصبحون اساتذة لاهوتيين ـ وكان الشرط الذي يفرض عليهم البؤس والفاقة يؤمن لهم النجاح عند الطـلاب الفقراء الذين كانوا يشكلون غالبية الرأي العام الجامعي • وهكذا بلغت المدرسـة الفرنسيسكانية في أكسفورد شهرة هائلة ، منتجة ثلاثة من أكبر عقول العصر ، وهم روجر بيكون ودانز سكون واوكام ، ومرتقية بجامعة اكسفورد الى مرتبـة السوربون حيث تدرس الآداب ـ « الفنون » ـ والحقوق القانونية ـ « المرسوم » ـ واللاهوت • لكن اللاهوت في اكسفورد ما عتم أن جنح الى الكثير من الحرية تلقاء روما •

وسيطر نشر مؤلفات أرسطو في الغرب على الحركة الفكرية للقـرن الثالث عشر وبعث هياجـا عنيفـا في الجامعات • كان أحد أطباء خليفة قرطبة ، ابن رشد ، قد وضـع في القرن السابق تعليقـا شخصيا على هذه المؤلفات انتشرت ترجمته بصورة واسـعة • وكانت التناقضات الظاهـرة لمذهبي أرسطو وابن رشـد مع العقيدة المسيحية تقلق الافكار جـدا حتى لقد عمـد دومينيكيان كانا السبب في شهرة جامعة باريس ، وهما الالماني القديس ألبير الكبير والايطالي القديس توما الاكويني ، الى اغنـاء الفكـر المسيحي بالنظريـة الارسطوطالية بعد ما حذفا منها كل ما يمكن ان يعرض الايمان للمخاطـر • وكانت جامعة مونبيليه مخصصة

للطب في المحل الاول ، أما جامعة تولوز فقد أسستها البابوية عام ١٢٢٩ لتكون رائد الايمان القديم في منطقة الهراطقة الالبيين(١) ۰ وقد أسس فريديريك الثاني جامعة نابولي مستهدفا منها لتكوين الموظفين ، بينما ازدهرت سريعا جامعة سالامانك في أسبانيا ، وأنشأ الملك دوفيز المتحرر جامعة لشبونة في البرتغال عام ١٢٩٠ ـ وما أسرع أن أصبحت جامعة كونبرا التي قامت لمساعدتها موضع الاحترام ۰ وكانت ألمانيا ، بفضل الاوتوينين ، أول بلد أوروبي جدد الروابط مع التقليد الكارولنجي ، لكن جامعاتها لم تشاهد النور مع ذلك الا في وقت متأخر جدا ، اذ أن عدم الاستقرار الذي كان يسيطر عليها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يفسر السبب في عدم نشوء جامعة أولبرغ الا عام ١٣٣٦ ، وجامعة ليبزغ الا عام ١٤٠٩ ۰ وأسس شارل الرابع جامعة براغ عام ١٣٤٧ بغية جمع شعوبه الجرمانية والسلافية في ثقافة مشتركة ، فحذا أرشيدوق النمسا حذوه في فيينا عام ١٣٣٥ ، وملك بولونيا في كراكوفيا عام ١٤٠٠ ۰

لكن حاجزا كان ينتصب في الشرق ۰۰۰ ففتوحات

---

(١) نسبة الى Alibi ، وهي منطقة في مقاطعة تارن الفرنسية ، تشكلت فيها جماعة دينية انتشر نفوذها في القرن الحادي عشر الى الجنوب الفرنسي كله ۰ وقد سير ضدها اينو سان الثالث حملة صليبية عام ١٢٠٠ احتلت القرى الخاضعة لها ودمرتها ، لكن الحرب لم تنته الا بمعاهدة باريس عام ١٢٢٠ (المترجمة) ۰

الاتراك تمنع كل تقدم • لقد أخضع الاتراك ، بعـــد انتصارهم في كوسوفو عام ١٣٨٩ ، العبريين أولا ، ثم البلغاريين • وهكذا تم الالتفاف على بيزنطة من الغرب ، فسقطت عـــام ١٤٥٣ ، وارتفعت أربع مآذن بالتكبير حوالي كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية بعدما أصبحت جامعا • وفي الشمال كانت بولونيا ، التـــي اعتنقت المسيحية بفضل بيزنطة وأصبحت كاثوليكيـــة قبل نهاية القرن العاشر ، تمر في أوقات من العظمة ، وقد جعل منها كازيمير الكبير ، ومن بعده ســــلالة جاليللون المالكة ، بلدا عصريا في القـــرنين الرابع عشر والخامس عشر • وأصبحت كراكوفيا مقر جامعة تشع منها ثقافة غربية على الشرق الاوروبي كله – في حـــين كانت الحكومة البولونية تقيم على أســـاس مؤسسات زائلة من سوء الحظ حرية الفلاحين وحقهم في الملكية • وتوصلت سويسرا ، في الجانب الآخر منالامبراطورية ، الى الاستقلال في القرن الرابع عشر ، اذ تمكنت ثلاث مقاطعات مغطاة بالغابات مـــن الخلاص مـــن السيادة النمسوية وعقدت فيما بينها معاهدة « أبدية » • لقد كان اتحـــاد المقاطعات السويسرية الدولة الاوروبيـــة الاولى التي حققت المؤسسات الديموقراطية • ان أزمانا جديدة تلوح بشائرها في الافق •••

وفي الوقت نفسه كان الفلورنسي دافني أليجيري يوقظ الآداب الايطالية – لكنه ظل انسانا من العصور الوسيطة ، فيما ظهر بعده فلورنسي آخر هو بترارك ليكون رائدا للنهضة المقبلة ، وذلك بينما كان جيوتو

يصور بشرا حقيقيين ، وليس مجرد صور بشرية ٠

لكن ايطاليا وحدها قد تأثرت بهذا الانطلاق من البحث والابداع ، بينما سترهق تجربة طويلة القوى الحية لكل من فرنسا وانكلترا ٠ واذا كانت الكنيسة قد أدانت رامي السهام الذي رسمه هولبن العجوز في لوحته « شهادة سان سباستيان » ، فهو سوف ينتصر على الشاعر ، والراهب ، والفارس جميعا ٠

الانطلاقة الصوفية

تأسست في عهد شارلمان « مستعمرة عسكرية أسبانية » حول برشلونة ٠ وبعد كارثة رونسونو(١) ، استولى الامبراطور على بلدة بومبولون Pomplune كي تكون قاعدة الانطلاق في حملة ممكنة لاسترداد الشاطىء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة ٠ وكانت كومبوستيل التي تحفظ في كاتدرائيتها برفات القديس يعقوب تنتصب في طرف هذا الشاطىء ، في غاليسيا ٠ وكان مئات الالوف من الحجاج يقصدون كل عام تلك المدينة ، فتختلط الشعوب جميعا على الطرقات الى ذلك الحج ، ويثير **نشيد رولان** مشاعر المشاة على تلك الدروب التي تجتاز فرنسا ، مارة بباريس ، وفيزيلي ، ولميرمون ، وكونك أو آرل ٠ وما أسرع أن أصبحت

---

(١) Roncevaux وايد قرب البيرينه انهزمت فيه مؤخرة جيش شارلمان عام ٧٧٨ هزيمة نكراء أمام الفاسكوينين ٠ وقد لقي الشاعر رولان حتفه في هذه المعركة (المترجمة) ٠

بعض الرسوم المصغرة والقطع الزجاجية تمثل هـــذا النشيد • وان المخطوط الاول من **النشيد** هو مخطوط انكلو نورماندي ، وثمــة مخطوطان آخران مــن صنع البندقية ــ وكانت بافاريا تملك هي الاخرى ، منذ عام ١١٣٠ ، نشيدها الرولاندي الخاص Ruodlandesliet

وفي القرن الحادي عشر ، انتصب في سماء بلدة كلوني برج ذو هندسة ثورية • ان تصميمه المتعــدد الزوايا ، وصفه المزدوج من النوافذ ، سوف يتكرران في انقاذ أربعمائة بناء دينيمماثل ، حتى يبلغا هالبرستادت في ألمانيا • وفي الوقت نفسه ، وبصورة موازية **لنشيد رولان** حيث أصبحت لغة قومية أدبا للمرة الاولى فــي التاريخ الاوروبي ، كانت اوروبا تجد أسلوبها الخاص بواسطة الفن الروماني • ومما لا ريب فيه ان هــذا الاسلوب لم يكن بريئا من المؤثرات الاخرى ، فقد كان يجمع تقاليد متنوعة ، متوسطية ولومباردية وشرقيــة كانت الثقافة الاوروبية على صلة بها في ذلك الحين • ذلك أن الفن المعماري لم يتطور الا قليلا عند المعماريين الكارولنجيين • وقد تميزت نهاية القرن الحادي عشر بتطور عظيم ، لكنه اذا كانت كنيسة كلوني قد بقيت حتى اعادة بناء كنيسة القديس بطرس في روما في القرن السادس عشر أكبرالكنائس وأكثرها تقليدا ، فان تنوع المدارس الرومانية لم يكن أقل بيانا من ذلك • هكذا انطلقت هندسة اوروبية حقا ، مـــن البرتغال حتى البلطيق ، ومن تخوم اسكوتلندا حتى صقلية ، ورينانيا تدين لها وحدها بكاتدرائيات تريف ودورم وسبير ،

وأسقفية لاياك • وكان لفرنسا مدرسة في الاوفرن في بواتييه ، الخ • وكان هذا الفن الروماني يبعث الحياة في النصوص المقدسة ، ويعبر عما تتضمنه من معنى رمزي بواسطة لاوقعية او تصرف في الاسلوب مقصورين تماما • وتلك كانت الحال في التصوير بالخاصة •

ومن ثم ، شيئا فشيئا ، برز مجتمع جديد الى الوجود ، وكان يتطلب روحا جديدة • وكانت الصلاة البنيدكتية لا تلمس شغافقلوب سكان المدن الا قليلا ، فذلك زمان المحبة اكثر منه زمان المباخر ـ المحبة التي كانت تكلل فرنسوا داسيز الذي أسس مع رفاقه الاثني عشر الذي قدمهم الى البابا ايفوسان الثالث عام ١٢١٠ فرقة الاخوة الصغار ، الفرقة المتسولة المثلى التي كانت بشارتها تجرف الجماهير • وقد جعل القديس دومنيك الكاستيلي ، المشغول في المحل الاول بالنضال ضد الهرطقة الالبيانية ، من نفسه فقيرا عام ١٢٠٥ كي يصدقه الفقراء • لقد كان الدومنيكان في أصل محاكم التفتيش ، لكنهم أنتجوا قبل ذلك القديس توما الاكويني ، أحد منارات اللاهوت الكاثوليكي • وانتشرت الفرقتان ، فرقة القديس فرنسوا وفرقة القديس دومنيك ، في كل اوروبا ، اولاهما في ايطاليا وفرنسا وألمانيا واسبانيا وانكلترا حتى هنغاريا ، وثانيتهما حتى بولونيا •

وان اوروبا لتدين لانحلال النفوذ البنيدكتي نفسه بالاسلوب الغوتي الذي ظهر منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر • ولعل المحاولات الاولى لتلك القبة

المبنية على زوايا متصالبة تسمح بالارتفاع عاليا جـدا بسقف البنـــاء مع التخفيف من جدرانه قد جرت في انكلترا ، لكن الارجح أن ظهورها ســبق في البلدان الخاضعة لنفوذ ملك فرنسا مباشرة • وسرعان ما قامت الكاتدرائيات ، فمنذ عام ١١٥١ أعطت نوايون Noyan الاشارة ، ولحقت بها لايون Laon عن قرب ، وهي التي سيكون لها تأثيرها في كل ألمانيا • وفيما بعــد كانت نوتردام دي باريس ، ودي شارتر ، ودي أميان ، ودي ريمز ••• لقد انطلق الفن الغوتي ، خلافا للفن الروماني ، من نقطة محددة في اوروبا ، لكنه لم يلاق ما لاقاه الفن السابق له من انتشار ، بل ظل في نظـر جميع الشعوب نتاجا للفكر الفرنسي Opus francigenum وانكلترا هي الوحيدة التي ثبتت المغوتية بحزم مثـل فرنسا ، لكن بطريقة خاصة بها تعطينا المثال الافضل عنها كاتدرائية ساليزبوري بقبتها الوحيدة وبنوافذها المثلثة الاقواس ، بينما كانت يورك وايكسيتر وليشفيلد وغلوسيستر وويلز تستنفد كل تنوع ذلك الاسلوب ، وكان المهندسون في البلدان الاخرى يستثمرون الموضوع نفسه ، بحيث كان ذلك أحد الظواهر الكبيرة الاوروبية الاخرى للعصر الوسيط •

وبقدر ما كانت المرحلة الرومانية تسر بالاعتداء على الاشكال الطبيعية ، كان الفنان الغوتي يحترم هذه الاشكال ، اذ أن المخلوقات التي صنعها الله انما تمجد الله ، في نظره ، في واقعيتها اليومية ، في واقعية جسدها كما في واقعية نفسها ـ وبذلك كان هذا الفنان يلتقي

مع فرنسوا داسيز • وحلت الرسوم الزجاجية مكان الرسوم الجدرانية ، اذ أن الفنان يريد أن يصنع في المحل الاول نشيد النور ـ ولم تتحقق هذه الارادة للنور الذي هو صلاة في أي مكان أفضل مما تحققت في الالفي متر مربع التي تشتمل عليها اللوحات الزجاجية المائة والثلاث وسبعون الموجودة في شارتر •

لقد جاء الموضوع الغوتي في شمالي فرنسا ، لكن اوروبا أدخلت عليه كثيرا من التعديلات : فتوليد استوحت بورج ، وكوتانس وبورج تتكرران في بورغوس ، وليون تتصل بشارتر وبالفن الشامباني ، كما يعكس دير ألكوباسا في البرتغال صراحة الفن السيستركي ، ويستوحي فن سانت ماري دي فكتورا في باتالا فن يورك وكانتربوري • وكانت ايطاليا ، الخاضعة للتقليد البيزنطي ، البلد الوحيد الذي ظل ينفر من الهندسة الجديدة التي لم تأت اليها الا بصورة متأخرة ، أضف الى ذلك أن اسم duamo الذي سرعان ما أطلقه الايطاليون على سائر كاتدرائياتهم يعني بصراحة أنهم لم يتكيفوا الا بصورة سيئة مع القبب المبنية على الزوايا والاسهم • وكانت ألمانيا على نقيض ذلك ، اذ اعتنقت الغوتية دونما تحفظ رغما عن تبنيها لاسم dom • وهكذا ارتفعت في القرن الثالث عشر كاتدرائية ماغربورغ ، ونوتردام دي تريف ، ومجمع ماربورغ ، وكاتدرائية كولونيا • بيد أن سائر هذه الابنية تقريبا قد تطلبت عمل أجيال عديدة • ومثال ذلك أن كاتدرائية القديس مرقص في البندقية ، وهي

بيزنطية ورومانية وغوتية معا ، لم تكتمل الا في القرن الخامس عشر مع أن العمل بدأ فيها منذ القرن العاشر ، كما لم تكمل كاتدرائية ميلانو الا بأمر من نابليون ، وكاتدرائية كولونيا الا عام ١٨٨٠ ٠٠٠

وكانت الحرب الصليبية انطلاقة صوفية أخرى ٠ « ان الحرب الصليبية ، في ترابطها الديني وقوة حياتها الجماعية ، قد كانت جاهـــزة حالما بدأت الحـــرب الصليبية ، ان الشيء الفذ في هذه القصة الفذة يقوم هنا بالضبط : ان الحرب الصليبية تنخرط في الحال ، وهي الواقـــع الحي ، العضوي ، في موضوعها الديني المكون منذ نهاية القرنالحادي عشر ، وفي لاهوتها أيضا٠ ليست هي خاتمة لتطور ، بل انبثاقا نصف عفوي لقوة احيائية جماعية هائلة ، مدججة بالسلاح منذ البداية ، مثلها مثل صورة الالاهة ٠ وهذا يكفي من أجل تفسير الطرافة الرائعة للحرب الصليبية ، وكل ما يبحث فيها عن ذاته من خلق وتجربة للاسطورة (١) ٠ » واذا لم تقع حرب صليبية قبل أحداث عام ١٠٩٥ ، فقد كان ثمة انضاج على أي حال للعناصر التي أبرزت الى الوجود روح الحرب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر ٠ ان تجارب ، وصورا ، وتقاليد عديدة قد انطبعت في اللاشعور الجماعي للغـــرب في سياق ألف عـــام من العلاقات الطبيعية والروحية مع الشرق الذي أتت منه « البشارة الصالحة » ٠ وقد عادت اورشليم من جديد

---

(١) Pual Alphandérg : Le chrétien et L'idée decroisode .

ـ أو صارت ـ مع قسطنطين المدينةالمقدسة للمسيحية ٠ وكان اكتشاف مغارة القبر المقدس ، وتل الجلجلة ، وكان اختراع الصليب المقدس : فمنذ القرن الرابع انتظم الطقس الديني ، وارتفعت المعابد فوق الاماكن المقدسة ، وصـــار الشرق بالنسبة الى الغربيين الارض المقدسة لتاريخ ديانتهم الماضي والحاضر على السواء ٠ ويقدر ما كانت رحلات الحج تتعدد ، وبالخاصة بقدر ما كانت تتسع في جماهيرها البشرية ، كانت أهداف جماعية تنضم الى الاهـــداف الفردية ٠ وكان البعض يعتقدون ان الحج الى اورشليم هو خاتمة المصير الديني الاسمى الذي يمكن لمؤمن ان يطمح اليه ٠ وما أسرع أن ظهر الميعاد ، منذ عهد بابوية يوحنا الثامن ، بأن المحاربين الذين يقضون في القتال ضد الوثنيين والكفار حاصلون حتما على الخلاص ٠ ولقد بدأ تاريخ هذا الحج في القرن الرابع معاختراع أسطورة الصليب المقدس ، ولم ينقطع مطلقا منذ القرن الرابع حتى القرن الحادي عشر ، بل اتسع مفهومه مع الزمن من طقس ديني غايته التطهر الفردي الى عمل جماعي للخلاص المشترك ،وذلك في يقين الانتظار الاسكاتولوجي « لنهـاية الازمان » ، بالضبط حين كان يبدو أنه مهدد في ذات استمراره بفعل أحداث القـرن الحادي عشر ٠ وعنـــدئذ تجمع الحجاج وشرعوا يتسلحون ٠ كان « الجو » مهيئا من أجل دعوة اوريان الثاني الى الحرب الصليبية بقدر ما كان الوضع السياسي يتطلب الهاء « خارجيا » ٠

ولم تكن الحرب الصليبية حتى بدأت ، نظريا ،

سوى عملية منزهة نظمتها الكنيسة التي قلقت بحق من جراء ما تتعرض له اوروبا المسيحية كلها من تهـديد نتيجة لانتصارات الاتراك السلاجقة . وهكذا كان المقصد الوحيد المحدد صراحة هو انقاذ القبر المقدس . بيد أن الكثيرين قد راحوا ينظرون ، عند ملامسة الوقائع ، الى الامور من وجهة نظر أكثر موضوعية . « عنـدئذ أكتسبت الحرب الصليبية صفة حملة استعمارية يقاس نجاحها بسعة ومتانة الاراضي المفتوحة والارباح الحاصلة أكثر مما يقاس بما حققته من نتائج دينية . ولم تستطع البابوية نفسها ، بقدر ما كان هذا الموقف يؤمن سلامة اوروبا ويوسع فوق كل رجاء ميدان فعلها الشخصي ، الا أن تغلق عينيها في آخر المطاف وتغتبط لاستخدامها على تلك الصورة الجليلة الفائدة غرائز القتال عنـــد النبالة الاقطاعية » . (١) وقد سمحت هذه الحمـلات باشعاع الحضارة التي ستزدهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في فرنسا بادىء الامر ، ومن بعد في الغرب الاوروبي كله ، فهي بما أدت اليه من ذهاب وأياب متصلين للسادة الاقطاعيين مـــن شمالي انكلترا حتى الشواطىء القصوى للبحر الابيض المتوسط قد أسهمت سهاما عظيما في توحيـد اوروبا الاخلاقي ، وتوحيدها العنصري حتى درجة ما . أما أن ايطاليا الجنوبية أو انكلترا قد استعمرتا من قبل النورمانديين في القرن الحادي عشر ، وأما أن اسبانيا الشمالية قد شاهدت ،

---

(١) Louis Halphon : L'essor de L'europe , P , 64 .

في العصر نفسه ، جيوشا من فرسان بورغونيا وشامبانيا ولانغودوك وغاسكونيا تتراكض فوق أرضها ، وأما أن سورية وتراسيا وبيلوبونيزيا قد خدمت فيما بعد كنقاط تجمع لبارونات فرنسا وايطاليا ، فتلك جميعا أحداث عظيمة الاهمية كانت لها نتائج جليلة •

وكانت البابوية سباقة الى الاستفادة مما حققه « جنود الله » المجندون تحت لوائها من نجاحات ، فالديانة المسيحية لم تكف عن الامتداد بفضلهم • وكانت هذه الديانة هي التي توحد الشعوب الاوروبية في جهد واع ضد كتلة « الكفار » المختلطة • وكانت أنظار اولئك الذين بدأوا يستشعرون الروح « الاوروبية » تتجه نحو البابا بالضبط ، الامر الذي يفسر لماذا فقدت قضية شائكة جدا مثل قضية تقليد المناصب شيئا من حدتها ، واذا كان الملك قد أسهم في ذلك ، فقد أسهم فيه أيضا الشعور الجديد جزئيا بقوة أخلاقية عليا لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار حتى اذا لم تدعمها قوة مادية كافية •

ومما لا ريب فيه أن اتفاق وورم worms بتاريخ ٢٣ ايلول ١١٢٢ لم يكن كاملا ، لكنه كان يقرر وجود ميدانين ، الروحي والزمني ، ويفصلهما عن بعضهما بعضا • وكان ذلك تطورا حاسما بالنسبة الى الكنيسة ، اذ توصلت الى التملص حتى درجة كبيرة من سيطرة السلطة العلمانية في موضوع الدين : كان في وسعها اذن أن تكمل عمل الاصلاح الديني دون الاصطدام باستمرار بمعارضة الملوك والاسياد ـ وهذا ما لم تتأخر عنه •

والحقيقة أن الحرب الصليبية ما كانت بلغت هذا الشأو من النجاح لو لم تتحرك جماهير السكان بالعظات اللاهبة لمبشرين عديدين يمجدون فضائل العهود الانجيلية ويدعون الى العودة من جديد الى ممارسة الديانة البدائية • كان رهبان فرقة هيرشو Hirochau المؤسسة عام ١٠٧٥ على مثال كلوني ، قد اجتازوا حوالي عام ١٠٩٠ ألمانيا طولا وعرضا ، بينما كان روبير دي سوليسم قد أسس دير سيتو في فرنسا ، وبرونو دي كولوني الشارتروز ، وروبير واربريسيل فونت فرولت ، الخ • واستولت البابوية في القرن الثاني عشر على الاشراف على هذه الحركة • ولم يظهر الاتجاه الجديد الذي شجعه البابا الا مع القديس برنار : ففي عام ١١٢٢ ، كان ١٩ بيتا ينتسب الى الفرقة السيستركية ، وبعد ثلاثين عاما كانت تعد اكثر من ٤٥٠ ديرا • وهكذا تسربت الروح السيستركية الى الاكليروس العادي ، مستخدمة ميوله الفردية ومعجلة في التفافه حول البابا •

ولم تتأخر نتائج الحروب الصليبية التجارية عن الظهور ، فقد انطلق كثيرون من التجار وأصحاب المراكب خلف فرسان فرنسا والمانيا وايطاليا ، يجتذبهم الامل في الاسواق التي سيستولون عليها • ولقد استقروا منذ أوائل القرن الثاني عشر على طول الشاطىء السوري ، من أنطاكية حتى يافا ، وفي المدن الداخلية الرئيسية • ولم تكن طرقات آسيا بين ايديهم بعد ، لكنهم كانوا يسيطرون على مصباتها • ولما كانت التجارة تستدعي التجارة فسرعان ما تحققت يقظة عمومية للفعاليات التي

خدرتهاأجيال عديدة منالركود · وتبدلالبناء الاجتماعي كله نتيجة ذلك ، حتى أن الاطر الاقطاعية نفسها سرعان ما اتضح أنها غير كافية لعالم توسع على تلك الصــورة المباغتة · لقد كان الغربيون يستغنون اذن بكل صعوبة عن منتجات المشرق ، وكانت الفتوحات العربيةوالتركية حتى نهاية القرن الحادي عشر ، بما فرضته من عقبات على تجـارة البحر الابيض المتوسط الشرقي ، أحـــد الاسباب الرئيسية ، اذا لم تكن السبب الوحيد ، في انهيار اوروبا الصناعي · ووجدت الحرب الصليبية بيزا وجنوا والبندقية عـــلى أتم الاستعداد جميعا لاستثمار الميـــادين التي تسهل نجاحات الاســـياد العسكريـة استقرارها فيه · وتشكلت شركات تجارية قوية مــن أجل استثمار ثروات المشرق في هذه المدن الثلاث التــي سرعان ما سيطرت ، بفضل وسائلها المالية ، على أهم الاسواق في المنطقة الشرقية للبحر الابيض المتوسط ، فلم يبق ميناء واحد ، من مضيق جبل طارق حتى دلتا النيل · الا بلغه الايطاليون ونظموا تجارته · بيد أن هذا الاحياء للتجارة المتوسطية من قبل الغربيين ما كان يمكن ان يتحقق لولم تتأثراوروبا الغربية خطىالانطلاقة الحادثة ، فتضاعف من جانبها انتاجها حتى درجة بعيدة بفضل المواد الاولية المستوردة من المشرق ، وذلك لترد على ما كانت تجارة التصدير تتطلبه بصورة متزايدة من الحاجيات المصنوعة · كانت العودة الىاستقرار سياسي نسبي قد خلقت في اوروبا الغربية منذ بعض الوقت الظروف الملائمة لتجدد عام للنشاط ، بحيث كان العمل

يقوم من أجل زبائن أكثر اتساعا بدلا من حصر الانتاج في حدود القدرة الشرائية للمستهلكين المحليين • ولقد فتح سبيل التخصص في العمل ، ولسوف يسير الانتاج بحزم في هذا السبيل اعتبارا من القرن الثاني عشر •

وجه جديد لأوربا

كان الاضطراب سائدا غداة أحداث الغروب الصقلية (٣٠ آذار ١٢٨٢)(١) وبعو موت شارل رانجو (٦ كانون الثاني ١٢٨٥) • فتلقاء الشرق الذي غزاه المغول ، هـذا الشرق المجرد عن وجدان وحضارة مشتركين ، كانت اوروبا تدين لماضيها بجوهر قوتها الاخلاقية • بيد أنها كانت تعيش في قلق الارتياب • لقد مات فيليب الشجاع ، خليفة القديس لويس ، في نفس السنة التي مات ملك صقلية فيها • وكان مارتن الرابع قد وضع البابوية في مركز حرج ، للغاية بسبب مقامرته على الورقة الانجوية وحدها • وانها لمصادفة عجيبة : فقاهر أحداث الغروب الصقلية ، بيير الثالث

---

(١) أحداث الغروب الصقلية Sicilienneo ، هي مذبحة عامـة لتونسيين في صقلية ، في ظل حكم شارل وانجو ، أخي القديس لويس • وكانت هذه المذبحة نتيجة لتآمر أحد أنصار آل سوآب أو هوهانستوف الذين حكموا منطقة سوآب في سويسرا منذ عام ١٠٨٠ حتى عام ١٢٦٩ • ففي اثنين النصح ، حين كانت الاجراس تدعو الشعب الى صلاة الغروب ، ثار الصقليون وهاجموا الفرنسيين في الجزيرة وقتلوهم عن بكرة أبيهم ، ولم ينج منهم سوى فارسين (المترجمة)•

داراغون ، قد لحق عام ١٢٨٥ ، في القبر ، بالملك الذي انتزع منه تاج صقلية ، وبالبابا الذي نازعه هذا التاج ، فيما اختفى ميشيل باليولوغ امبراطور بيزنطة منذ كانون الاول ١٢٨٢ ، غير تارك لوريثه أندرونيك سوى امبراطورية في حالة النزاع · وهكذا خلقت أوضاع جديدة ، فقد حرض اختفاء شارل وانجو ملك ألمانيا على التطلع مجددا نحو ايطاليا ، هذه التي سحرّت أسلافه منذ آل اوتون · وكان يتراءى ان المستقبل هو لتلك البلدان (فرنسا على سبيل المثال) التي عرفت أن تقيم داخل حدودها نظاما ملكيا قوميا قويا · وكان ادوارد الاول ملك انكلترا ورودولف دي هابسبورغ يعملان على تقوية سلطانهما · بيد ان الملوك كانوا مضطرين الى أخذ رعاياهم بعين الاعتبار · وهكذا تجاوبت البراءة الذهبية الهنغارية مع الميثاق الكبير ليوحنا الذي لا أرخى له ، كما اضطر الامراء السكاندينافيون الذين تمكنوا من انقاذ بعض سلطانهم في ملء الفوضى الاقطاعية الى قبول بعض التنازلات المماثلة : لقد برهن الميثاق الكبير الدانمركي لعام ١٢٨٢ على مبلغ ما يتحلى به المثال الانكليزي من قوة العدوى ، وهذا ما لن تتأخر فرنسا نفسها عن ادراكه · وكانت بشائر بعض المستجدات تلوح في المرتبة الاجتماعية ايضا · ان البورجوازيات المدنية تطالب بمكان أوسع لها ، فالاضطرابات الاجتماعية للقرن الرابع عشر في فرنسا ، وفي انكلترا ، وفي ايطاليا ، كانت تختمر منذ نهاية القرن الثالث عشر · وكان

الضيق سائدا في الميدانين الفكري والاخلاقي ايضا ، وهو الذي أدى الى المجامع الكبرى للقرن الخامس عشر ·

ان ثلاثة قرون من الحملات والمغامرات قد صنعت وجها جديدا لاوروبا · وكان الناس العائدون مـــن فلسطين يملكون نظرة جديدة : لقد اتسع أفقهم · وبالمقابل ، فقد حصدت الحروب الصليبية الاقطاعية· وهكذا اخذت البلدان الاوروبية ، وقد استراحت من طيش هؤلاء المتنازعين الأبديين الذين هم الأسياد ، تتنفس بشيء اعظم من الحرية ، فتطور اقتصادهـــا بينما الملوك يقيمون مكان الأطر الاقطاعية مبادىء اولية في الادارة المركزية ، وذلك حين لم يتأخر البرج ذو المرقب Beffroi عن اكتساب مغزى مماثل لمغزى البرج المحصن Donjon (١) ، أي الحمـــاية والسلطة ، ولم يتأخر الحكام البلديون ـ وهم الذين كانوا يسمون échevins في الشمال و Consvls في الجنوب ـ عن النظر الى العلاقات الاجتماعية بوصفها علاقات مصالح ، ولم تتأخر الاتفاقات الودية عـــن تثبيت نفسهـــا بوصفها حلولا أفضل بما لا يقـــاس في الحرب ···

ومنذ عام ١٢٤٥ ، أرسل البابا الفرنسيسكاني

---

(١) كان البرج ذو المرقب Beffroi برجا للمدينة يقوم فيه حرس بواجبه في مراقبة الريف ليل نهار ، وفيه جـرس يستخدم سواء في قرع ناقوس الخطر أو في دعوة الناس الى الكومونة · امـــا البرج المحصن Donion ، فهوبرج قصورالسادة الاقطاعيين(المترجمة)·

جان دي بلان كاربان الى كاراكوروم ، كما أرسل لويس التاسع ، عـــام ١٢٥٤ ، فرنسيسكانيا آخــــر هو غليوم دي روبروك الى العاصمة المغولية • ان آفاقـا واسعة تنفتح ، وماركوبولو يعدد لدى عودته من الصين أساليب تكنيكية عديدة مجهولة عنــــد الاوروبيين ، ويروي انه شاهد الفلفل يزرع • ولم تذهب دروســه سـدى : فمنذ القـــرن الرابع عشر شرعت اوروبا في استثمار الفحم الحجري واستخدام بارود المدافع • وكان مردود حيوانات الجر قد تضاعف ثلاث مــــرات منذ عام ١٠٠٠ بفضل استخدام « زناق الكتف » ، بينما الريح تدير الطواحين منذ عام ١٠١٥ ، الخ •

وحين وضعت حرب المائة عام أوزارها ، كانت الروح القومية التي تهب في فرنسا وفي انكلتــــرا تنكر الروح المسيحية الوسيطة ، بينما كانت أمة ثالثة هي اسبانيا تبلغ العظمة عن طريق فرديناند واراغون وايزابيل دي كاستيل واسترجاع غرناطة من العرب • ان العصر الوسيط يبلغ نهايتــــه • وكانت الطاقات والارادات تتوتر : كان ذلك زمان ضلالات الايمــان الجماعية ، والهيجانات المناوئة للسامية ، وهرطقـة جــــان هوس ، ومواكب المجلودين (١) في المانيــــا ، ونجاحات السحر والتنجيم ، ومحاكمات اعمال السحر ،

---

(١) Les glagellants ، وهم جماعة من المهووسـين الدينيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد سموا هكذا لانهم كانوا يجلدون أنفسهم علنا أمام الناس (المترجمة) •

والمذهب التأثري في التصوير والنحت . ومهما يكن من أمر ، فقد كان الطموح الى الاشياء المنيعة يهجر العالم . وهذان جان فان أييك يترك النقش ليفتتح عهد اللوحة المرسومة على حامل ، رافعا بذلك التصوير بالزيت الى غاية الكمال . وكان وسواس الموت يخيم على اوروبا ، فرسوم كامبوسانتو في بيزا ، **ورقصة الموت** على جسر لوسيرن ومثيلتها الخاصة بشيزديو ترفع جميعا نفس الأنين . وقد بلغ دافيد بوتس حد الأوهام في لوحته عن **الديونة الاخيرة** . ان الفن يعقد الاشكال ويعذبها بعدما سبق له تلطيفها وتهدئتها ، فروان تصبح العاصمة الفرنسية للفن الغوتي المنتهي ، والانتشار التزويقي للفن البيكاري يتحد بالتأثيرات العربية في اسبانيا والبرتغال ، بينما تسعى العمارات البلدية في بروكسل لان تثبت فيما يبدو ان جبروت البورجوازي لا يقل في العظمة عن جبروت خالقه .

الفصل الثاني

في فجر العصر الصناعي

« ان التطور الذي بدأ بعمل كبير جدا في العصر الوسيط ، وتسارع في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حتى ليتردد المؤرخون أحيانا في ان يضعوا هذه المرحلة في العصور الوسيطة او في العصور الحديثة ، قد انطلق بقوة حوالي أواخر القرن الخامس عشر بحيث يظهر عالم جديد حقا وتبدأ مرحلة جديدة من الانسانية ، وذلك رغما عن استمرار وبقاء أنماط كثيرة من التفكير والشعور ، ومؤسسات وسيطية عديدة » • (١) ما الذي يميز هذا التطور ؟ ان ما يميزه بادىء ذي بدء هو نمو الروح الفردية ، روح فردية فاوستية منذ ذلك الحين • لم يعد الانسان يعنى بعد الآن ببلوغ المطلق قدر عنايته بدراسة الطبيعة بغية السيطرة عليها ، فهو يسعى أن يشيح بوجهه عن الله كي يهتدي الى الخليقة • وليست النهضة مجرد محاكاة للعصور القديمة ، رغما عن ان الاوروبيين يجدون عند

---

(١) Roland Mounier , Les xvı ᵉ et xv ᵉ Siécles, P idans L'histoire générale des civihisations

القدماء بعض الصفات التي تفيدهم في التحرر من العصر الوسيط (١) • وفيما عدا ذلك فان الرأسمالية تنمو ، تحرضها التجارة البحرية والمستعمرية ، وتدفق المعادن الثمينة مع ما يؤدي اليه من ارتفاع في الاسعار ، ويعضدها تطور الدولة والفرد : ولقد كانت رأسمالية تجارية بادىء الامر ، ومن بعد رأسمالية صناعية في انكلترا منذ النصف الاول من القرن السابع عشر • وان الفرد ليطالب بالحرية الفردية تلقاء الطوائف العمالية ، والولايات المتحدة ، والمقاطعات ، والصيغ الدينية الموضوعة من قبل اقتصاد اقطاعي ومن أجله • ومن ثم فان تطور البورجوازية مرتبط بتطور الدولة الملكية ، هذا الحكم بين النبلاء والبورجوازيين • ذلك أن بين التجار والدولة مصالح مشتركة ، مادام اولئك وحدهم يستطيعون ان يدخلوا الى البلاد ما تحتاج الدولة اليه من عملات • وهكذا لا بد للدولة أن تتبنى السياسة الاقتصادية لفئة التجار ، فتجعل من المملكة وحدة اقتصادية مهمتها تجميع المعادن الثمينة عن طريق توازن ايجابي في المبادلات ، وتطبيق تدابير في مصلحة التجار ـ والدولة وحدها قادرة على تحرير البورجوازيين الرأسماليين من عقبات النظام السابق ،

---

(١) لكن الاصلاحات الدينية في هذا العصر ـ الاصلاح البروتستانتي ، والاصلاح الكاثوليكي ، والنهضة الكاثوليكية ، والجانسينة ـ تشير في الوقت نفسه الى رد العقل ضد عالم متحرر يرفض الله ، وتبين عن الحاجة الى ديانة فردية اكثر شخصانية •

وتوفير الصعود الاجتماعي والامتيازات لهم ضد طبقة النبلاء • واخيرا فان الفردية توطد اقدامها في انطلاقة الامم : ففكرة الامبراطورية المقدسة ، فكرة جمهورية مسيحية متراتبة تحت الادارة المشتركة للبابا والامبراطور ، تفقد قوتها نهائيا ليحل مكانها فكرة قيام مجموعة من الدول ذات السيادة ، المتساوية في الحقوق، وهي فكرة تؤدي الى مفهوم التوازن الاوروبي • وتتحارب الدول في سبيل السيطرة ، فاذا فكرة الاستعمار الاسباني ، والنمسوي ، والفرنسي ، تأخذ مكان فكرة الامبراطورية ـ بيد أن أحلافا وتكتلات كانت تعترض سبيل التوسع الزائد لاي دولة • ومنذ ذلك الحين قام الصراع بين هذه الدول فوق كل البحار ، بحيث أصبح تاريخ اوروبا حتى درجة بعيدة مرتبطا بتاريخ البلدان الواقعة ما وراء البحار •

نهاية روح الحرب الصليبية

كثيرا ما تستخدم عبارة « التفوق الاسباني » في وصف تاريخ اوروبا السياسي في النصف الثاني من القرن السادس عشر • ولا ريب ان في هذه العبارة الشيء الكثير ، بله الزائد ، في التبسيط ، لكنها توافق مع ذلك أحد المظاهر الهامة لتحقيقه ، وبالخاصة ما كان لها من ترجيع في الميدان الروحي • فحينما كانت السيطرة الاسبانية ترسخ في ايطاليا ، كانت شركة يسوع التي أسسها اسباني ، والتي كانت بادىء الامر تجند اكثر اعضائها من اسبانيا نفسها ، توطد نفوذها

بقوة في روما وفي سائر مقاطعات الكاثوليكية الرومانية ٠ « ان اسبانيا وحدها ، في الغرب ، قد ردت هجمات الهرطقة ، ولم تضطر الى بعثرة قواها في صراعات عقائدية ٠ وكان من نصيب أحد أبنائها ان يكون فكرة جيش ديني يجوب جميع البلدان ، مثيرا الحماسة ومبشرا بالمثل الذي يحتذى في ميادين الايمان ٠ اننا واجدون عند أغناطيوس دي لويولا وتلامذته نفس تلك الحمية النضامية التي حركت جيوش المحررين الايبريين طوال قرون من الحرب ضد العرب » (١) ٠ أكانت القضية اذن هي دفع الكنيسة بالطابع الاسباني بفعل نفوذ اليسوعيين ؟ ان ما حدث في الواقع هو دمغها بالطابع الايطالي ما دام مجمع ترانت هو الذي اعطى الكنيسة اتجاهها الجديد (٢) ٠ ومهما يكن من امر ، فقد كان من الطبيعي أن تتبدل كنيسة ما بعد الاصلاح، وقد انقطعت عن جزء كبير من البلدان الجرمانية مثلما انقطعت في أزمان أخرى عن البلدان السلافية والاغريقية ، مفرقة أكثر فأكثر في النزعة اللاتينية ليس في شخص رئيسها فحسب (كان سائر البابوات ايطاليين منذ عام ١٥٢٣) ، بل في اعضائها وفي روحها أيضا ٠ وما عتمت شركة يسوع ، بالرغم من كونها

---

(١) G . zeller , Histoire des relotions internotioneles , t , II PP : 148 - 149 .

(٢) هو المجمع المعقود في مدينة ترانت الايطالية من عام ١٥٤٥ حتى عام ١٩٦٣ ، وقد وضعت فيه أسس الاصلاح الكاثوليكي الكبير (المترجمة) ٠

اسبانية في أصولها وفي قوادها الأولين ، أن اصبحت اممية في عناصرها ، مثلها في ذلك مثل سائر الجماعات الدينية ؛ كذلك ما عتمت أن ذهبت تبحث عن شعاراتها في روما ، معلنة نفسها بابوية ورومانية ، بل جاعلة من نفسها بطلة الحكم المطلق الروماني في وجه فيليب الثاني ٠

وكان الميدان الأمثل للنشاط اليسوعي في البلاد التي يوجد فيها هراطقة ينبغي مكافحتهم وتعليمهم ٠ ولقد أصبح اليسوعيون ، حيثما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، في النمسا وبولونيا مثلا ، المستشارين المسموعي الكلمة عند الملوك ، وكانت كل جهودهم منصبة على اثارة شعور الاشمئزاز والرعب حيال الهرطقة في قلوب هؤلاء الملوك ٠ « كانت مدارسهم ، على طول الحد الفاصل بين العالم الكاثوليكي والعالم الذي انضم الى الاصلاح ، من دواي الى فيلنا عبر انغولستاد وبراغ ، أشبه بقلاع خط حصار هائل يطوق المراكز التي يسيطر الخصم عليها » (١) ٠ وبتأثيرهم لم تعد المسيحية المجاهدة تفكر الا في الدفاع عن نفسها ضد توسع الاصلاح ، يعني الحفاظ على أشكال المسيحية التقليدية، عازفة أكثر فأكثر عن الاهتمام بالخطر الاسلامي ، مستغنية نهائيا ، بصورة لا واعية ، عن روح الحروب الصليبية ٠

ولقد أدى الاصلاح الى اضعاف المسكونية المسيحية،

---

(١) المصدر نفسه ، ص : ١٥١ ٠

فلم يعد العالم المسيحي صفا واحدا الا في علاقاته مع الاسلام · ان ما يهم بعد الآن هي الدول التي يتوزع العالم المسيحي فيما بينها ، وكل من هذه الدول تجسد أمة تولد ارادتها في الوجود وفي الحياة تظاهرات للانانية الجماعية يمكن تشبيهها بتلك التظاهرات التي ابتدع القرن التاسع عشر في انحطاطه عبارة القومية من أجلها ، وان هذه القومية لتتظاهر في مختلف الميادين ·

١ ـ لم تعد اللاتينية هي اللغة العمومية · ان شارل الخامس يثير فضيحة بالقائه عام ١٥٣٦ خطابا بالاسبانية امام مجمع من الكرادلة يرأسه البابا ، كما يبدو ايراسموس رجعيا : ان كل دولة تريد ان يكون لها لغتها الخاصة ·

٢ ـ تمارس فكرة الاكتفاء الذاتي سلطانا كبيرا على التشريع التجاري ، فالتجار الاجانب ينبغي لهم أن يبتاعوا منتجات محلية بأثمان بضائعهم ، كما ينبغي للتجار الانكليز ان يستخدموا سفنا انكليزية ، فيما تمنع اسبانيا تصدير الذهب والفضة ، الخ ·

٣ ـ كان العصر الوسيط على المام من دون ريب بمبادىء تشريعية في مادة الحقوق الدولية ، لكن هذه المبادىء (باستثناء ما يتعلق منها بالعادات البحرية التي كان بعضها مشرعا منذ العصر الوسيط) لم تضع في قوانين الا في القرن السادس عشر ، اذ استبدلت حقوق منصوصة بقانون العادة · ولم يكن التنظيم التراتبي للعالم تحت السلطة المزدوجة للباباوالامبراطور يترك للدول كفاية من الاستقلال كي تستطيع الاعتراف

بخضوعها لقانون تقبل جميعا بمبادئه بملء ارادتها ٠ ولقد تحقق هذا الشرط الضروري حالما أهمل ، عمليا ، المفهوم الوحدوي للعالم المسيحي ٠ ويتحدث انـاس القرن الرابع عشر بعد ، تجمع العادة ، عن « الجمهورية المسيحية » ، لكنهم لا يؤمنون بها ٠

٤ ــ يتسارع نسق العلاقات بين الدول الكبرى كثيرا بحيث يصبح من الضروري تبديل أدوات الحرب والدبلوماسية ٠ وهكـذا عرفت الجيوش الدائمـة والسفارات الدائمة منذ نهاية القرن الخامس عشر ٠

٥ ــ كان العالم المسيحي في القرون الوسيطـة يشكل ، بالمقارنة مع العصور الحديثة ، وحدة اقتصادية كبرى ٠ فلم يكن ثمة حـدود جمركية تكمل الحـدود السياسية ، وتنظيم الانظمـة الجمركية المتجانسة ، بتصرفاتها المتميزة ، هو من صنع القـرن السادس عشر ٠ ان الضرائب تصبح ، وقد كانت بادىء الامر مجرد تدابير اميرية ، أداة سياسة اقتصادية معينـة ، أداة يكتشف الناس شيئا فشيئا مرونتها العظيمة ٠ ويستبدل نظام الاتفاقات الثنائية الجانب والعهود بين الدول بنظام الامتيازات الممنوحة للتجار ، وتحتـل القضايا التجارية مكانا متزايد الاهمية في الدبلوماسية، وتتكاثر المعاهدات التجارية يوما بعد يوم ٠

وكانت وحدة لا جدال فيها تسم الحياة الفكرية في العـالم المسيحي للعصر الوسيط ٠ كانت نخبـة مختلف البلدان تنهل من المعين الثقافي نفسه ، والاساتذة والطلاب يتنقلون بين الجامعات دون أن يشعر اي منهم

أنه غريب في أي مكان يحل فيه ، وذلك بفضل استخدام اللغة اللاتينية • وحين اقترح الالماني الكسندر دي روس ، في نهاية القرن الثالث عشر ، ان ينسب الكهنوت الى البابوية ، والامبراطورية الى المانيا ، والمعرفة الى فرنسا ، فقد كان يفترض مبدئيا ، بصورة ضمنية ، ان التعليم يجب ان يتلقى ، مثله مثل السلطتين الروحية والزمنية ، حافزا وحيدا في الجماعية فوق القومية التي كان يحلم بها سائر المفكرين الصالحين ، مكرسا بذلك على طريقته الخاصة التفوق المعترف به لجامعة باريس • لكنه شرع ابتداء من القرن الخامس عشر بتأميم تدريجي للجامعات ، وهو حدث رافق أو سبق ، في التطور العام للمجتمع الاوروبي ، كشكل الدول القومية الكبرى • لقد أظهرت الشعوب في مختلف الميادين ، أكثر مما كانت تفعل في الماضي وأوضح ، الوعي لفرديتها ، بله الاعتزاز بها ، الامر الذي كان يدعمه هنا وهناك الى ايمان جديد ومعارضتها للكنيسة المسكونية السابقة • وجردت السدة الرسولية شيئا فشيئا من السلطة العليا التي كانت تمارسها،وأصبحت الجامعات القديمة ، وبالخاصة في البلدان التي اعتنقت الاصلاح ، تابعة للدولة ، فيما أسست جامعات جديدة (في جنيف ، وماربورغ ، وارمينيا ، وكونغسبرغ) في سبيل خدمة الدولة •

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الحركة القومية الطابع لم تؤد ، مهما أمكنها أن تكون شاملة ، الى اقامة الحواجز الفكرية في اوروبا ، كما فعلت بها من

وجهة النظر الاقتصادية اقامة الجمارك الدولية حوالي الفترة نفسها • ان عادات تقادم عليها الزمن قرونـا عديدة لا يمكن ان تتلاشى بسهولـة ، اضف الى ذلك بقاء اللاتينية لغة الثقافة ، وبالتالي لغة التعليم • كانت المبادلات الثقافية مستمرة بين الشعوب ، والـروابط الفكرية لا تبرح تتصالب بصورة متزايدة ، كما ظلت وحدة التكوين والثقافة عند الطبقات العليا مرصوصة زمنا طويلا بفعل الجاذبية العمومية للأنسية الايطالية والحضارة الايطالية • « بينما كانت القوة الاسبانية والبرتغالية تعمل على غزو البحار والقارات البعيدة ، كانت ايطاليا تنشر سلطانها بقوة الفكر على اوروبا القديمة كلها » (١) • ولم تكن روما هي المركز الرئيسي لايطاليا الخمسمائة عام Cinquecenhe ، هذا المركـز الثقافي الجبار الذي يرسل اشعاعه الى القارة بأسرها ، بل كانت جامعة بادو هي قبلة الاجانب (٢) ، كمـا كانت جامعة بولونيـا تجتذب الحقوقيين مـن كل البلدان • وصحيح ان الكنيسة اتخذت عـام ١٥٦٥ تدابير غايتها إبعاد « ذوي الايمان المنحرف » عن هـذه الجامعات ، مما أدى الى رحيل جميع الالمان عنها ، لكن الخلل لم يتسرب الى نفوذ ايطاليا بنتيجـة ذلك •

---

(١) المصدر نفسه ، ص : ١٨٦ •

(٢) من عوامل ذلك ، حتى درجة بعيدة ، أن الليبرالية البندقية كانت تحمي غير الكاثوليكيين ضد الاكليروس وضد محاكم التفتيش •

كانت الشعوب الاخرى ، في اعجابهـــا بهذا « الشعب المختار » ، تبحث عنده عن النماذج والمرشدين • ولم يتأثر اشعاع فرنسا بهذه الحظوة التي نالتها ايطاليا عصر النهضة ، وعلى أي حال لم تقم أي خصومة بين هاتين الثقافتين ، طالما كانت فرنسا سباقة الى الاستقاء من ايطاليا • ولقد تغلب الاصلاح الكالفاني على الاصلاح اللوثري حيثمـــا قامت المنافسة المباشرة بينهمـــا ، وكانت الاتجاهات العامة لتوسعه هي نفس الاتجاهات التي دفعت امتداد الفكر الفرنسي • واذا تركنا جانبا الكتلة الجرمانية مع ملحقاتها السكاندينافية ، فـــان الكالفانية انتشرت في ســـائر المنـــاطق الاوروبية التي لمستها روح الاصلاح ، فيما اعتنقت انكلترا اصلاحا من نوع مخصوص ، لا هو لوثري ولا هو كالفاني ، وذلك هو اصلاح هنري الثامن الذي لم تعدل اليزابيث فيه شيئا على وجه التقريب ، ودافعت عن نفسها طويلا ضد الهرطقة على أي حال ، زاعمة انها لا تعدو كونها انفصالية فقط • وكانت اسبانيا تحتل مركزا مرموقا جدا بين ايطاليا التي كانت في ذروة نفوذها وفرنســـا التي كانت تؤكد قوتها التوسعية • بيد أن اسبانيـــا ما كانت تستطيع على أي حال ادعاء الارتقاء الى المرتبة التي تعينها لها ، في ميادين أخرى ، شجاعة غزاتها ، وبلوغها التفوق السياسي والعسكري ، واخلاصهـــا المثالي للايمان القديم • لقد كانت تسهم في الحيـــاة الفكرية الدولية ، لكنها تستعير من البلدان الاخرى أكثر مما تعطيها ، وكان زبائن جامعاتها من أبناء شبه

الجزيرة الايبرية بمجموعهم تقريبا ، ولم يكن التعليم المعطى في هــذه الجامعات يتمتع بأي قيمة عمومية . ولم يشح تأثير كتابهـــا قط ، مثل تأثير الكتـــاب الفرنسيين والايطـــاليين ، حتى الزوايا الشرقية من القارة . لكن انكلترا عنيت بأسبانيا على أي حـال ، فتكاثرت في عصر النزعـــة الايطالية الظافرة ، عصر اليزابيث ، الاستعارات من اسبانيا ، واسهم المسرح الاسباني في تغذية مخيلة شيكسبير .

المغزى الانساني للموت

حوالي عام ١٤٥٠ ، ظهرت في كل مكان تقريبا في اوروبا ، لكن في بلاد الشمال خاصة ، « مخطوطات » غريبة : لم تكن هذه المخطوطات تختلف كثـــيرا ، في مظهرها الخارجي ، عن المخطوطات التقليدية ، لكنها « طبعت » على الورق بواسطة أحرف متحركة ومطبعة . ولقد أدت هذه الكتب الجديدة الى تبدلات عميقة في عادات وظروف قراء ذلك العصر ، الدينيين والعلمانيين على السواء ، وهي تبدلات تركت طابعها في العــالم ، متجاوزة بذلك الحـدود التي نشأت فيهـــا . « ان الكتاب ــ وقد ولد في سياق احدى تلك المراحل مــن الخلق والتحول التي تعرفها سائر الحضارات القمينة بالديمومة ، وصمم ونفذ بعد فترة قصيرة من تلك الهزة التي سببها ذلك الاختراع الآخر الذي هو اختراع بارود المدافع والاسلحة النارية المنقولة التي طفق النـــاس يعارضون صفاتها بصفاته منذ القرن الخامس عشر ،

ومشاهد النور قبل عدة أجيال من اتساع العالم المعروف من قبل بطليموس (هذا العالم الذي بقي العالم المعروف من قبل توما الأكويني) ، وقبل تلك الرحلات البحرية الجريئة التي سوف تنتهي ، اعتبارا من عام ١٤٩٢ ، الى تملك الاوروبيين لقطع شاسعة الأبعاد من قارات مجهولة ، وشرع اخيرا في انتاج آثاره حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، في تلك المرحلة الخاصة قبل أن يؤدي التنظيم التدريجي لجملة بصرية جديدة الى منح الانسان الغربي ، لمدة خمسة قرون على الاقل ، مكانا كونيا مناسبا له تماما ، وقبل ان تنتهي حسابات ناسك فلكي ، هناك بعيدا في البلدان البلطيقية ، الى أول اذلال كبير من تلك الاذلالات الكبيرة التي ستكون من نصيب الكرة الارضية خلال بضعة قرون ـ ان الكتاب يشكل هكذا جزءاً من مجموعة من التبدلات الجبارة التي لا ريب ان من واجبنا الحذر من اعتبارها ناشئة في نفس اليوم ، وبصورة أدت الى تكديس آلي لنتائجها المقلقة ـ ولكن أيان لنا أن نفهم ما حمله في طياته الى اناس القرن الخامس عشر المنتهي والقرن السادس عشر المبتدىء اذا لم نضع نصب أعيننا كل هذا المجموع من المبتكرات الذي لعب هو نفسه دوره الخاص فيما بينها » (١) ٠ ذلك ان الكتاب

---

(١) لوسيان فيفر في مقدمة كتاب **D'offarition duliver** ص : ٢٤ ـ ٢٥ ؛ والكتاب من تاليف **Henri - Jean Martin** وهو من أهم مؤلفات المجموعة **L'evolution de L'numanité**

المطبوع قد كان ، في واقع الامر ، شيئا مختلفا كل الاختلاف عن مجرد انجاز تكنيكي : انه يمثل شحذا لاحدى الادوات الأقوى التي ستستخدمها الحضارة الاوروبية في سبيل مركزة فكر ممثليها المبعثر ، وفي سبيل منح تأمل الباحثين الفردي كل فعاليته بنقله على الفور الى باحثين آخرين ، الامر الذي سيكسبها تماسكا جديدا ، وبالتالي قوة لا تضاهى على النفوذ والاشعاع • كم من الزمن امتد هذا التطور ؟ لقد بدأ من الانقلابات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي عمدها ميشله باسم النهضة ، وامتد حتى مرحلة أخرى من الانقلابات التي تظاهرت في ثورات سياسية وقعت أحداثها في ملء تحولات اقتصادية واجتماعية عميقة ، والتي أدت الى ثورة أدبية وفنية هي الرومانطيكية ، في حين كانت البروليتاريا الصناعية تعي نفسها بوصفها طبقة ، وكان مجتمع النخبة يستعد للامحاء امام مجتمع الجماهير • وأيامئذ فرضت الصحيفة نفسها جنبا الى جنب مع الكتاب •

وقد وصل الينا اكثر من ٣٥٠٠٠ طبعة مختلفة أنجزت بين عام ١٤٥٠ وعام ١٥٠٠ ، وهي تمثل حوالي عشرة الى خمسة عشر الف نص مختلف • واذا افترضنا ان متوسط عدد النسخ المطبوعة هو خمسمائة ، فمعنى ذلك أن أكثر من عشرين مليون نسخة طبعت عام ١٥٠٠ ، وهو رقم يعظم دفعه حين نعرف ان اوروبا في ذلك الحين كانت أقل سكانا منها اليوم (كان عدد السكان ينقص عن ١٠٠ مليون في البلدان التي كانت

الطباعة منتشرة فيها) . وكان ٧٧٪ من هذه الكتب مطبوعة باللاتينية ، و ٧٪ بالايطالية ، و ٦٪ بالالمانية ، و ٥٪ بالفرنسية ، و ١٪ بالفلمنكية . وكانت النصوص الدينية هي السائدة ، فنسبتها ٤٥٪ ، ويأتي بعدها الكتب ذات الصفة الادبية : ٣٠٪ ، فكتب الحقوق : ١٠٪ ، واخيرا الكتب العلمية : ١٠٪(١) . وكانت احدى المهمات الرئيسية للطباعة في أوائل عهدها هي جعل الكتاب المقدس في متناول عدد اكبر من القراء ، في اللاتينية وفي اللغات « العامية » ، وتوفير الابحاث المدرسية الكبرى للطلاب واساتذة الجامعات ، ومضاعفة عدد كتب الصلوات وكتب التقوى ، الخ . وهكذا اسهمت الطباعة في معرفة أدق باللغة اللاتينية ولمؤلفي العصور القديمة ، وبذلك ساعدت حتى درجة بعيدة في نشر دروس الأنسية الايطالية في اوروبا كلها .

وكانت بشائر تبدل هام آخر تلوح في الأفق في الوقت نفسه . ان موتا « انسانيا » يحتل ، تت شعار العقل ، مكان الموت « السماوي » المتجه نحو العالم الآخر ، وهو باب مفتوح على مصراعيه يعبره الانسان دون ان ينقبض كثيرا على نفسه بصورة مسبقة . وشيئا فشيئا أخذت الملامح التي يسبغها البشر على الموت والمنعشات التي تنشأ عن التماس معه تتخذ رونقا جديدا ، فهي تتخلص من التقليد الديني

---

(١) راجع في الموسوعة الفرنسية ، المجلد الثاني عشر ، مقالة Le cinilisotion écrité

والكلاسيكي بحيث ظهر عندئذ في علم الايقونات الموتية تناقض مع المفاهيم المسيحية ، وتعبير موسيقي عن شعور واقعي ، وصورة كينونة روحية كانت مجهولة حتى ذلك الحين (١) • ونشأ اعتبارا من نهاية القرن الثالث عشر وفي مطلع القرن الرابع عشر أدب علماني يعبر عن احساس أليم بحقيقة الموت الانساني : ان الأسف على الحياة ينمو اذن بمثل شدة نمو الوعي لقيمة الموت الجسدي الروحية ، بينما ينتصب شيء أشبه بالجدار يزداد ارتفاعا وصلابة دون انقطاع بين الوطن السماوي والمنفى الارضي ، وذلك هو جدار الفناء الجسدي الذي أصبح المسيحيون يجتازونه بصعوبة متعاظمة • ان الجثمان البشري ، الذي كان موضوعا للتأمل بالنسبة الى المؤمنين ، يتخذ في نظرهم شيئا فشيئا مغزاه الرهيب المتوعد ، فاذا الموت يحوم منذ ذلك الحين فوق رؤوسهم • وقد عدل هذا القسر ردود فعلهم الروحية ، فنشأت عن هذا القلق تصورات صالحة بصورة عمومية لكل من شعوب اوروبا ، كما انطلقت أزمة باطنية سرعان ما اتخذت مظهر حركة

---

(١) راجع مقالة ألبرتوتينانتي : الحياة والموت عبر فن القرن الخامس عشر ، في العدد الثامن من عام ١٩٥٢ من Cahieres des Annales ، ص : ٨٥ : « لقد راودنا الشعور باننا اكتشفنا مجددا ، في شكل باهر ، الجماعية الفكرية لاوروبا في نهاية العصر الوسيط ، فيما التراث المسيحي يسيطر بعد في كل مكان على رؤية الحياة » •

تحررية . واما أدرك البشر الحدود المطلقة لوجودهم الارضي ، فقد اكتسب هذا الوجود علانية ، بنتيجة ذلك الادراك بالضبط ، معنى ما كان الايمان الديني حتى ذلك الحين يسمح باعطائه اياه . تلك كانت اصول ما يمكن تسميته المغزى العلماني للموت . وعندئذ أصبح الموت الخصم الوحيد الجدير بالصراع ، والفكرة الموجهة لاخلاق خاضعة لقوى الارض والسماء ، أو للمبدأ الاخلاقي الذي يعتنقه انسان واع لقيمته مثل وعيه لقصر عمره . وان قضية الحياة بعد الموت لتطرح نفسها اذن في كل سعتها ، لكن في عبارات جديدة ، كما ان الحاجة الى وضع قيم اخلاقية قمينة بالتغلب على هذا الوعي الباطن عند الانسان لفنائه تقوم في اصل تمجيد الكرامة الانسانية ، وأصل خرافة المجد والمفهوم العلماني عن الفضيلة ، هذه الاشياء التي اتت النهضة بها جميعا . وان الانسانية ، المشغولة بقضية الحياة بعد الموت (وهي في الوقت نفسه قضية العلاقات بين الفرد والله) لتريد حوالي عام ١٥٠٠ ان تجدد مفهوم هذه القضية . واذا كانت هذه الرابطة الصميمية بين الفناء الجسدي والطموح الى الحياة الابدية تتخذ عند ليوناردو دي فنشي شكل مذهب طبيعي فلسفي ، فان هذا الاهتمام موجود في سائر التيارات الفكرية للقرن السادس عشر : ان الموت هو العنصر الاساسي الذي يمنح الانسان الحديث الشعور بديمومته ، وبالتالي بكل حياته .

الانسية

يمكننا اذن ، مع اوغستان رونوديه ، أن نعرف الأنسية بوصفها « عقيدةترفض ، لتوجهها نحو الدراسة ونحو الحياة في وقت واحد ، ان تخفض قيمة الانسان وقيمة عمله الفردي أو الجماعي ، وألا تكون عنه سوى فكرة متواضعة بصورة ارادية ، وألا تجد في الطبيعة الانسانية سوى الضعف والبؤس ، بل هي تمجد على نقيض ذلك عظمة الفكر الانساني وقوة ابداعاته في العلوم والفن والحياة الاخلاقية ، وتعارض قوته بالقوة الخام للمادة التي يدرك قوانينها • وتقود هذه العقيدة الى نظرية أخلاقية عن الفعل ، فهي تملي على الانسان ••• جهدا متصلا في سبيل تحقيق الكمال الأسمى للعلاقات الانسانية • واذا ما فهمت الأنسية على هذا الغرار ، فهي تتطلب عملا ثقافيا عظيما : انها تفترض علما متزايد الاتساع دائما عن الانسان والعالم؛ انها تؤسس أخلاقا وحقوقا ؛ انها تنتهي الىسياسة ••• ذلك هو فن النهضة في جوهره ؛ ذلك هو الادب المعاصر بكل تأكيد • » (١)

ولقد امكن لتلامذة بترارك الاعتقاد بأن معنى سائر قضايا المعرفة والحياة والفن والرغبة في حلها

---

(١) Autour d'une déinition de l'numanisme

Renailnamee المجلد السادس ، ١٩٤٢ ، ص : ٧ ـ ٤٩ •

Bibtiothéque d' Humanisme eeh de

قد فقدا في سياق العصر الوسيط • ولم تكف العصور القديمة قط عن العمل في اتجاه الأنسية ، وقد حسب اناس القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن العصر الوسيط انقطع عن كونه أنسيا ، أو أنه لم يكن كذلك بالفعل في أي وقت على الاطلاق • واما أرادوا ان يعيدوا اتصال التيار المقطوع مع العصور القديمة ، فقد رجعوا الى ذلك الاستقصاء للعالم وذلك الجهد نحو معرفة الكائن الانساني اللذين قامت تربية المواطن القديمة على أسسهما ، واللذين كانوا يتوقعون منهما اصلاحا فكريا وأخلاقيا للعالم المسيحي • ولقد عنى هذا البعث للقيم الميتة بالنسبة اليهم أبحاث ليوناردو دي فنشي الكبيرة وبراهين كوبرنيك وفيزال وتأسيس العلم الوضعي في الميدان العلمي ، أما في الميدان الفلسفي فاسترجاع حكمة قائمة بذاتها • لقد بعثت الى الحياة ، كما يقول اميل فاغيه ، المذاهب الرواقية والأبقراطية والطبيعية وبكل ما تحويه من حكمة بطولية وحكمة عملية وحكمة فلسفية تضيع الانسان بصورة ارادية في مخطط الأشياء الواسع • وحلت فكرة المواطن مكان فكرة الرعيــــة ، وفكرة الوطن مكان فكرة الاخلاص للعائلة المالكة ، وفكرة العقد الحر ـ وهي لما تبـرح غامضة ـ مكان فكرة الارتباط التقليدي ، الموروث ، والعضوي تقريبا » (١) •

---

(١) Le xvi ᵉᵐ Siécle , pp : 11 - 12 .

كان هذا الجهد القائم على فعل ايمان بقوة الفكر البشري يبدو معارضـــا ذي بدء لتشكل الكنـــائس المسيحية التقليدي • والحقيقة أن كل مفهوم مسيحي عن العالم والبشر يفترض فيما يبدو دينونة الطبيعـة الانسانية التي أفسدتها « الخطيئة الأصلية » ، ويؤدي الى « احتقار الزمان » والى التأكيد بأن المحبة هي الامر الوحيد الهام لأنها تكفي وحدها ، ووحدها فقط ، لحل سائر ما يعرض للانسان من قضايا في علاقاته مع الله والعالم والناس الآخرين • أما « الباقي » فلا أهمية له ، وليست معرفته الا بطلانا وغما روحيا (١) • وهكذا فان التشاؤم المسيحي يعارض الطبيعة وكل ما يمكن لهذه الطبيعة ان تنتجه ، بما في ذلك العبقرية الانسانية، بنظـــام فوق طبيعي يلوح أنه يناقضها وينكرهـــا

---

(١) راجع باسكال : « ان جميع الاجسام ، والجلد والنجوم والارض وممالكها ، لا تساوي الفكر الاكثر حقارة ، لأن هذا الفكر يعرف كل هذه الاشياء ويعرف ذاته ، والاجسام لا تعرف شيئا • وان الاجسام جميعا ، والافكار جميعا ، وسائر منتجاتها ، لا تساوي احقر حركة من المحبة ••• اننا لا نستطيع أن نخرج من م ختلف الاجسام أو ادنى فكرة ، فذلك مستحيل ، وهو من مرتبة أخرى • واننا لا نستطيع أن نخرج من الاجسام والافكار جميعا حركـــة واحدة من المحبة الحقيقية : هذا مستحيل ، وهو من مرتبة أخرى ، فوق طبيعية » •

ويشجبها . وعلى النقيض من ذلك ، فان الأنسية تؤكد طيبة الطبيعة وصلاحها ، تقبل الطبيعة والعالم وترتاح فيهما ، ومن هذه الأنسية سينحدر تفاؤل النهضة ، وتفاؤل « الموسوعة » ، وتفاؤل غوته ورجال الثورة ، وتفاؤل المدارس الطبيعية الذي تقومه حقا نظرة أقسى عن القوانين الطبيعية ، لكنه يظل واثقا مع ذلك في المستقبل وفي حتمية التبدلات غير المعنية . ومن هنا كانت أخلاق ، وعلم اجتماع ، وسياسة ، اقيمت جميعا في معزل عن التشاؤم المسيحي ، وهي تتجاهل هذا التشاؤم وتنكره وتكافحه .

بيد انه لا يمكن مع ذلك حشر تاريخ الفكر البشري في هذا التعارض . ان من يتصور المفهوم المسيحي خاضعا بالضرورة لتشاؤم متهيء أبدا لليأس من الطبيعة الانسانية يقع ، بدون وعي أولا ، تحت تأثير الافكار التي نادى بها سادة الاصلاح ، والجانستيون ، والمتطهرون الانكليز من بعدهم . فلوثر يدين سائر اعمال الانسان ، والعقل الانساني، والاخلاق الانسانية ، باعثا الى الحياة — في شيء من المغالاة — اللعنة التي أطلقها القديس بولس ضد الكبرياء « الوثنية » للمعرفة ، وفلسفة « الوثنيين » وثقافتهم وحضارتهم . وليس عنده سوى سبيل وحيد للخلاص ، كراهية سائر الاعمال البشرية ، وعدم الرجاء الا في التدخل الغادي للمسيح ، ولذا فهو يمقت

الأنسية ويلعن ايراسموس · ولا يقل كالفان أيضا عن لوثر حقدا على « كبرياء » الانسان ـ بالرغم مما يدين به لأنسية ايراسموس ـ ولا يفصله شيء في ازدرائه هذا للانسان عن جانسينوس ، وسان سيران ، أو عن أنطوان أرنولد · بيد أن لوثر ، وكالفان ، وجانسينوس ، وسان سيران وأرنولد ، ليسوا شهود المسيحية الوحيدين ، والقرن السابع عشر لا ينحصر في بور رويال وحده ، بل ان أنسية صوفية تكمل هذا التشاؤم · لقد كتبت القديسة تيريز يوما : « لست أجد شيئا يمكن مقارنته بما قد تتحلى به نفس ما من جمال عظيم ومقدرة هائلة » · ويجب أن نلقن التواضع في هذه الارض الدنيا لتلك النفس التي كساها الله كرامة عظيمة دون أن نضعف شعورها بعظمتها · وتؤكد القديسة تيريز أيضا : « ليس ما هو أشد ضرورة لنا من التواضع ··· لكن ثمة محذورا كبيرا في اعتبارنا ما نعاني من بؤس فقط ··· انه عهد الخطورة بمكان بالنسبة الينا ان نخطىء ونضل في موضوع التواضع ومعرفتنا بأنفسنا · والحقيقة أن ما اكتشفه من أسرار في باطننا كثيرا ما يبعث في نفسي اعجابا ممزوجا بالهلع » · هذا الدرس الذي تلقننا اياه القديسة تيريز ، وهي تستمده على أي حال من تقليد قديم جدا ، قد تلقفه المتصوفة الفرنسيون في النصف الاول من القرن السابع عشر · وهل في ذلك ما يدعو الى الدهشة ؟ كلا ، لان القديس فرنسوا دي سال لم يكن سوى أبرز ممثل لعائلة كبيرة من الأنسيين : ان

طبيعة مشربة بالعناصر الالهية مع « ما فوق طبيعة » كانوا يحسبون أنهم واجدون وحيها في الكتب المقدسة ، كما يحسب الصوفيون انهم يحسون ملامستها ــ تحقيق وحدة عالم الطبيعة مع عالم النعمة •

فليس من الصواب اذن أن تعارض النهضة بالعصر الوسيط ، والأنسية بالفكر الوسيط ، وأن ننسب اكتشاف الانسان والعالم الى النهضة وحدها ، وأن نقيم بين الأنسية والوثنية ، أو على الاقل عقلانية غريبة عن المعتقدات المسيحية ، وحدة في المبدأ • لقد استخرجت الأنسية القديمة للفلاسفة والشعراء جملة من الرموز من المعتقدات الوثنية ، فيما تكيفت الأنسية الحديثة مع المسيحية ، مثلما تكيفت المسيحية معها ، ودام هذا التبادل منذ أيام آباء الكنيسة مستمرا عبر العصر الوسيط • واذا كانت النهضة قد أعلنت انتصار أنسية طبيعية بحزم ، مناهضة للروح المسيحية ، فيجب أن نستنتج من ذلك أن الانسان ، وقد رضي بحالة الطبيعة الساقطة ، قد وضع بملء ارادته حدا لما يبذل من جهد منذ مطلع الأزمان المسيحية في سبيل معرفة ذاته وتجاوزها ، جاعلا بعد الآن من عبقريته الخاصة موضوع دراسته الوحيد • لكنه ما وجد قط منذ آباء الكنيسة ، فكر مسيحي لم يتقبل عناصر أنسية ، كما لم توجد أنسية لم تشتمل على جزء من المسيحية • ما الذي حمل اذن اناس القرن السادس عشر والاربعمائة عام quattrocento ، بما فيهم بترارك نفسه ، على الاعتقاد بأنهم يؤسسون معرفة

أنسية واسعة ، واعية ومقصودة ، قد دعمت جهد التركيب الفلسفي واللاهوتي الذي قامت به المدارس الرئيسية في العصر الوسيط ، بما فيها تلك المدارس التي كانت تلوح على أشد العداء حيال العالم ، وعلى أشد الحزم في « ازدراء هذا الزمان » (١) ٠

والحقيقة أن في انتاج الكتاب القدماء أنسية ما دام يمكن اختصاره في وصف للانسان الذي يؤخذ في موقفه من الكون أو في مجتمع أشباهه البشر ٠ ان السقراطيين والابقراطيين والرواقيين، وأفلاطون وأرسطو ، وشيشرون وسينيك ، وتولكيديدوس وبوليب وسالوستاد تيت ـ ليف ، وتاسيتوس ولوكريس وفيرجيل ، الخ ٠٠ قد أنجزوا جميعا ، في حدود اشتغالهم بتثقيف الانسان واصلاحه الفكري والخلقي ، مهمة خليقة بالأنسيين ٠ ولقد مهدت هذه الأنسية القديمة لان تطبق عمليا حكمه معبد ديلف ، أي أن تعرف الانسان ، وتحدد مكانه في العالم والمجتمع ، وترسم فعله بنتيجة هذه المعرفة ٠ ولقد فرض مثل هذا الجهد نفسه على الفلسفة المسيحية، ما دامت أخذت على عاتقها مهمة تحديد أخلاق الاجيال المدموغة بعلامة الصليب ٠ ويتضح هكذا أن العصر الوسيط لم يقطع علاقاته حقا مع العصور القديمة ، وأن اللاهوت المسيحي لم يدمر بالفعل عمل المعرفة القديمة ، بل لقد استهدفت آباء الكنيسة ولاهوتيو العصر الوسيط تكملة ذلك العمل ، وتحقيق وحدة

---

(١) Enienne Gilson, L'esprit de la Philosophie Mediévale

جديدة ، وأنهم يقطعون كل صلة بماض عاجز عن فهم القدماء ؟ كان بترارك جاهلا بالعصر الوسيط ، ولقد حسب انه السباق الى اجراء المصالحة بين العصور القديمة والعالم المسيحي ، وهي محاولة قام بها بهوى شعري ورومانطيكية مندفعة لم يتحل بهما السابقون له ، وكانا يعطيان وهم الاكتشاف • لكن المدرسية دخلت طور انحلالها النهائي في ذلك الوقت ، اذ فضل الاساتذة الباريسيون المعاصرون لبترارك ، منذ ذلك الحين ، الدراسة النظرية والعملية البادئة للفيزياء على تركيب القديس توما الفلسفي • ولقد أهمل خلفاؤهم في القرن الخامس عشر ، بسبب من نقص المنهج والادوات الفنية ، العلوم الوصفية التي بدأت تتشكل ، مفضلين عليها نظرية المنطق الصوري وتجربته ، بحيث أخفى جفاف الفكر أنسية التقليد المدرسي عن أعين الأنسيين • ولقد سادت الأنسية ، التي جددتها معرفة بترارك وعبقريته ، كل تاريخ اوروبا الغربية الفكري والاخلاقي حتى قيام الاصلاح ، لكنها وجدت تأكيدا لها ، حتى قبل أن يحاول بترارك تثبيت عقيدته ، في انتاج دانتي حيث بعث ماض برمته الى الى الحياة ، وحيث كانت بذور عالم جديد تظهر الى الوجود •

وما كان في مكنة رابليه ومعاصريه الا يؤمنوا • كان الانجيل يتقدم الى الناس اذن كتلة واحدة ، وما كانت نصوصه تتعرض لاي نقد تاريخي ، كما لم يكن تاريخ أيام المسيحية الاولى يدرس على غرار اي تاريخ

عادي • ولم يكن الانكار القائم على اساس علمي يستطيع ان يستهدف المسيحية بحد ذاتها ، بل كان يستهدف معها بكل بساطة كل ديانة تعلم أن كل شيء في الكون خاضع لارادة اله خالق ومشرع (١) • كان كل ما يتظاهر بحدة هو ذلك الانكار الناشيء عن اليأس ، الذي يمثله فرنسوا فيللون • والحقيقة ان القرن السادس عشر كان قرنا ملهما ، قرنا يريد أن يؤمن • لقد كان معظم مبدعي العالم الحديث رجالا مجبولين بالعاطفة الدينية ، الأمر الذي ينطبق على رابليه قبل ان ينطبق على ديكارت • ومع ذلك ، ورغما عن أن أيا من لوثر او كالفان لم تراوده قط الفكرة بأن حقوق الفكر لا حدود لها ، ورغما عن أننا لا نستطيع من جهة أخرى أن نتأثر خطى اوغوست كونت عندما يميز وجود علاقة بنوة بين اللوتربانية البدائية وتوحيدية deis me القرن الثامن عشر والالحاد الحديث (٢) ، فقد كان الاعتراف لكل مسيحي بالحق في تفسير الكتاب المقدس على هواه يعني طرح مبدأ جديد في وجه الكنيسة التي تحتفظ لنفسها حتى ذلك الحين بمثل هذا الحق ، وهو مبدأ كان يمكن ان يهدد بدوره الكتاب المقدس نفسه : هكذا فتح لوثر الطريق امام كالفان ، وكالفان امام فولتير ، وفولتير امام

---

(١) راجع Lucien Felevre : Le probléme de l'ineroynee au vII^em siécle La Religion de Rabelais .

(٢) Covrs de Philosopnie Positive , t : x , Legon Iv .

ويونان . ومن جهة اخرى ، فاذا كان كريستوف كولومب وخلفاؤه لم يفكروا لدى اكتشافهم اميركا في مـذهب توما كما لم يكن في نيتهم محاربته ، فقد وجهوا اليه على أي حال طعنة قاسية جدا : كان الكتاب المقـدس وأرسطو يشكلان وقتذاك قمة المعرفة البشرية ، وكانت هذه المعرفة تجهل وجود أميركا . وفي عام ١٥٤٣ ، اثبت كوبرنيك ان الارض التي كانت تعتبر فيما مضى المركز الجامد للعالم تدور حول نفســها اذ تـدور حول الشمس (١) ، كما كان حكماء الوثنية يتسربون في الوقت نفسه الى الاماكن المخصصة في الماضي لآبـاء الكنيسةومعلميها ، فمونتين يذكر سقراط ، والرواقيين والأبقراطيين ، وبلوتارك وشيشرون وسينيك حيثما كان يرد من قبل ذكر ترتوليان والقديس أمبرواز والقديس اوغسطينوس والقديس توما ورانزسكوت ، كما أن سؤاله «ماذا أعرف ؟» يفتحآفاقا شاسعةالابعاد .

ولم يتم هذا التطور دون صدام : ادانة غاليلو ، والغاء مرسوم نانت (٢) ، وتشتيت الجانسينيين ،الخ.

---

(١) أصدر هنري الرابع هذا المرسوم عام ١٥٩٨ في مصلحة البروتستانتيين ، فسمح لهم بموجبه بممارسة الطقوس الكالفانية في جميع انحاء المملكة ، ، باستثناء بارسي والبلاط ، كما منحهم الحق في أربع جامعات أو أكاديميات ، وفي بعض الاماكن في البرلمانات، الخ . لكن هذه الحقوق ألغيت الواحد تلو الآخر حتى قبل بلوغ لويس الرابع عشر سن الرشد ، ثم ألغى الملك نفسه هذا المرسوم عام ١٦٨٥ (المترجمة) .

(٢) الشمس هي التي تدور بالنسبة الى الكتـاب المقـدس ، وبرهان ذلك أن يشوع أوقفها في مسيرها .

ومهما يكن من امر ، فقد خط باسكان نفسه طرقا جديدة بمقارنته الانسانية « بنفس الانسان الواحد الذي يظل أبدا على قيد الحياة ويتعلم باستمرار » • ولقد صاغ ديكارت ، وهو الآخر مؤمن ، مبدأ ثوريا : « كان أولها ألا أقبل بصحة أي أمر كان ما لم أعرفه صحيحا بصورة أكيدة » • لقد صدم التيار الفكري الذاهب من غاليلو الى نيوتن البناء القديم القائم على الحقائق الموحدة لسفر التكوين وأرسطو ، بينما راحت حجارة بناء جديد تتجمع شيئا فشيئا •

مولد الرأسمالية

ان كان ميشله يسمي القرن الثامن عشر « القرن العظيم » ، فان رينان يعامل بشيء من الازدراء عصرا « يملك الناس فيه حرية التفكير ، لكنهم قلما يفكرون بحيث لا ينتج عن ذلك فائدة كبيرة » • وقد يكون ميشله صاغ مديحا لا تبرره الاحداث كليا ، فبول هازارد لم يجد كبير عناء العثور على الافكار التي يفخر بها « عصر الأنوار » وقد تمت صياغتها جميعا بين السنوات ١٦٧٠ ـ ١٧٠٠ • ومن المؤكد ان رينان يقع في مغالاة مناقضة • لكننا اذا قصدنا الاكتفاء بالمفاهيم المعبر عنها في مقتطفات من هذا النوع ، فقد نتعرض لحظر الاقتصار على بعض المقاطع الزمنية التي لا تتمتع بأية قيمة عميقة ، والانتهاء الى تفسير الثورة بالفلاسفة وحدهم • والحقيقة ان الثورة المالية للقرنين السابقين تطورت في اوروبا القرن الثامن عشر ، بينما

قامت في السنوات ١٧٥٠ ـ ١٧٦٠ ثورة صناعية سوف ينتج عنها عصر الآلة الحديثة • ولقد ساد الاتفـاق طوال زمن مديد على ان تاريخ الحضارة المعـاصرة يعود الى التبدلات الاقتصادية الحادثة في انكلترا خلال السنوات ١٧٦٠ ــ ١٨٣٢ ، يعني بين اعتلاء جورج الثالث العرش والتصويت على اللائحة الاولى للاصلاحات من قبل مجلس العموم • لكن لماذا هذا التبـدل ، ولماذا انكلترا ؟

تشكل نهاية القرن السادس عشر لحظة هامة في تاريخ اوروبا الاقتصادي ، فهؤلاء الاسبانيون يفقدون أولا الاشراف على معادن اميركا الثمينة التي اذا كان مخزونها تضاعف عشر مرات على الأرجح خلال القـرن السادس عشر ، فهو لم يتضاعف سـوى مرتين في القرن السابع عشر ، فيما كانت الحاجات النقدية من أجل المبادلات التجارية تتزايد باستمرار • وتنضم الى عدم الاستقرار الناجم عن التركيب الاجتماعي أزمـات طارئة منشؤها تحركات الاسعار التي أعقب صعودهـا المتواصل تقريبا في القرن السادس عشر تباطؤ في هذا الصعود أولا حتى حوالي السنوات ١٦٢٥ ــ ١٦٣٠ ، ثم ثباتها على مستوى واحـد ، وأخيرا هبوط بطيء تسارع بعد السنوات ١٦٥٠ ــ ١٦٦٠، بحيث وقعت الحركة ضمن دائرة تضخمية ، الامـر الذي أدى الى تماهل الجهد الاقتصادي والانطلاق الرأسمالي • وما كان بد من السعي الى تحسينات تكنيكية • لكن القرن السابع عشر يشكل هو أيضا مرحلة في الاسعار غـير

الثابتة ، المضطربة أكثر منها حتى في القرن السادس عشر • ان تقلبات الاسعار تبدأ في معظم البلدان منذ أوائل القرن • ويحـــدث حوالي السنوات ١٥٨٥ ـ ١٦٠٠ ، في كل مكان تقريبا ، « ترد » مفاجيء ، اي هبوط شديد يستمر حوالي السنوات ١٦١٠ ـ ١٦١٥ ، كي تتعاقب بعدئذ ذبذبات عريضة طوال القـــرن • وليس في المقدور اعطاء تفسير كامل لهذه الظاهرة ، اذ تبقى عوامل كثيرة في الظـــل • فليست الحـــروب اسباب تلك الظاهرة ، بل لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار **الشروط المناخية** والمضاربات النقدية وزيادة السكان(١)، الخ • ويبدو ان النتيجة التي سنخلص اليها من ذلك هي أن القرن السابع عشر هو قرن من الأزمات ، زادت فيه خطورة التناقضات الاجتماعية • وتواصل انكلترا في هذه الاثناء تطورها الرأسمالي المبني على التجارة البحرية الكبرى ، فتتضاعف المبادلات الخارجية عشر مرات خلال السنوات ١٦١٠ ـ ١٦٤٠ ، ويبدل الاقتصاد التجاري البنيات الزراعية و أشـــكال الفلاحة بصورة أعمق منها في فرنسا • ان الثورة الصناعية الاولى التي بدأت في القرن السادس عشر تسير قدما •

وحين يكتب جون نيف : « لقد كانت التناقضات بـين التطور الاقتصادي للبلدان الواطئـة الجنوبيـة (بلجيكا) الباقيـــة تحت سلطة الاسبانيـة والبلدان الشمالية (المقاطعات المتحدة) المستقلة والجمهورية ،

---

(١) Marcel Reinhard , Histoire de La Population Mondéale de 1700 . 1948 PP : 43 - 421

في خضم حرب السنوات الثلاثين ، الرد الامين على التناقضات القائمة في نفس الفترة بين الدول الخاضعة سابقا لسلطان شارل الخامس ودول شمالي اوروبا البروتستاننية منذ الاصلاح » ، فانه يطرح قضية كبرى هي قضية « انقلاب » أو انزلاق مركز الثقل الاقتصادي الذي كان واقعا حتى ذلك الحين في اوروبا المتوسطية نحو اوروبا الشمالية الغربية • أيمكن للتعارض بين ديانتين أن يؤدي الى مثل هذه الاختلافات الاقتصادية ؟ وحتى أي درجة يصبح الدين عاملا اقتصاديا يعب المواقف التي يؤدي اليها ؟ لقد أعلنت الكنيسة انها ضد الربا فيما لم تكن تخشى ان تستدين هي نفسها بفوائد ربوية وأن تنقطع بخدمات الشركات التجارية والمصرفية الكبرى(١) • والحقيقة تقال انها كانت تطارد القرض بضمانات من دون عمليات التسليف الكبرى ، لكن الامر بلغ بها مع ذلك حد الحكم بصورة مبدئية على أكبر دخل رأسمالي في ذلك العصر • وبقدر ما كانت مبادلة بضاعة ببضاعة أخرى او مبادلة بضاعة بمال يبتاع به بضاعة جديدة ـ يعني المتتاليين ب ـ ب أو ب ـ م ـ ب في المصطلحات الماركسية ، تبدو مشروعة في نظرها ، كانت الدورة م ـ ب ـ م تعرض الخلاص للخطر ، والدورة م ـ م هي الخطيئة المميتة ، والدورة م ـ م تعني المال عدا ونقدا ، أو المصرف • ولكن الرأسمالية

---

(١) انظر مؤلفات ايف رينوار ، وبالخاصة les Hommes d' Affaires Itrliens du Moyen âge (١٩٤٩) واطروحته عن les rélations des Papes d' Avignon et des Compolguies Commerciales et bancaires

التجارية تعممت رغما عن هذا الحكم ، مكرسة بذلك ظفر الصيغتين م ـ ب ـ م و م ـ م • ولما كانت الكالفانية تنتشر في الوقت نفسه في المدن التي هي في مرحلة الانطلاق ، فلا عجب ان يسعى البعض الى التفتيش عن علاقات سببية بينها وبين انتشار الرأسمالية •

ان الدين المصلح يصلح أخلاقه الاقتصادية : انه يحترز دائما من الثروة ، لكنه يدين تجميعها أقل مما يدين اساءة استخدامها • ويذهب مذهب المتطهرين الانكليز أبعد من ذلك في هذا الاتجاه ، ساعيا الى التوفيق بين روح المبادهة والالزام الاخلاقي : وهكذا تولد اخلاق المنافسة والصراع • لكن ماهي الرابطة بين تطور الانتاج وانتشار الايديولوجية التطهرية ؟ وهل الكالفانية أم الرأسمالية الحديثة ؟ ان النزاع في هذا الموضوع قديم جدا • ففي رأي قادني أن مذهب التطهر لم يكن سوى « خميرة » او « مقو » ، وقد لعبت عوامل أخرى على أوتار الانتفاع من الاموال المدخرة ، والاموال الموظفة ، والتوسع الاقتصادي ، اذ تبدلت نفسية الناس بعوامل طارئة • ان الصعود العام لدخل المشاريع يوقظ مبادرة متعهد الاعمال ، كما يبرهن تاريخ نظام التسليف على أن أزمان الرخاء هي أزمان « النقد الثمين » • « ان الادراك الجماعي من قبل طبقة المتعهدين لتوفر الظروف الملائمة جدا يشجع الاتجاه الى التوظيف والى التعجيل والتوسع في الانتاج أو في المبادلات » • (١) ولقد كان

---

(١) Ernest Labrousse , Préféce à la Religiom et L'essor du capitalism de Tacvney

ارتفاع عام في الاسعار السبب في توفر هذه الظروف المواتية جدا في القرن السادس عشر ، الامر الذي يحدونا الى الاعتقاد بأن التفسير الاقتصادي يعلل الامور الاساسية المتعلقة بهجمات التوظيف والتوسع ٠وليس ما يشبه حوافز التجميع « الروحاني » في القرن السادس عشر اكثر من حوافز التجميع « النفعي » في القرن الثامن عشر أو « الفيكتوري » في القرن التاسع عشر ٠ وليس مذهب التطهر ، بل سلوك الاسعار هو السبب في ذلك ٠

لكنه ينبغي التمييز بين الظاهرة الفكرية التي هي مولد ايديولوجية ما والظاهرة الاجتماعية التي هي انتشار هذه الايديولوجية ٠ وكيف قام مذهب التطهر في التاريخ ؟ أليس هو الذي يجد تفسيره في الواقع الاجتماعي بالاحرى من ان يفسر هو الواقع الاقتصادي ؟ وهل في الامكان عزله عن الطبقات التي استمدالقوة منها صحيح اننا نجد أخلاقا تنحت مجتمعا وفقا لها ، لكننا نجد كذلك مجتمعا ينحت أخلاقا على صورته ٠ ويرى ماكس ويبر في كتابه « البروتستانتية والرأسمالية » أن الكالفاني يسعى ، اذ هو غير واثق أبدا من انتخابه ، الى تأمين نجاح مشروعه ، ولما كان لا يستطيع الاعتماد على نجاحه كي يستريح ، فانه يعيد استخدام ماله ، منميا بذلك رأسماله بعملية رياضية بحتة ٠ ولم يكن ويبر يدعي مطلقا دحض الماركسية بمعارضتها بنظرية مثالية عن التاريخ ، واذا اردنا شيئا أكثر من البساطة فهو يناهض المبول العقائدية في رأيه ، هذه الميول التي

ترى أن تعطي التاريخ تفسيرا « كليا » ، وبالخلاصة مانويا ، (١) بواسطة الاقتصاد · ولا بد لنا أيضا من صعود تيار التاريخ حتى القرن الرابع عشر ، أي حتى ظهور رأسمالية تجارية في المدن الايطالية ، وحتى مولد أخلاق جديدة كنتيجة لتلك الرأسمالية ، أخلاق خاصة بالربح تفصم الوحدة في المرتبة الاجتماعية وفي المرتبة الفردية · وتؤدي هذه الاخلاق الى مفهوم تساؤمي عن المجتمع ، هذا المجتمع الذي لم يعد يتألف من جماعات متراتبة تتعاون فيما بينها ، بل من أفراد يناضلون من أجل ربحهم ، الواحد ضد الآخر والجميع ضد الجميع · ان اللجوء الى طاغية ماكيافيللي والتوجه الى أمير لوثر يستهدفان الحفاظ على النظام في مجتمع يعتقد أنه واقع في الفوضى لا محالة(٢) ·

« يبدو من غير المعقول لجوء أصحاب المصارف الى آلية معقدة ، بينما كان من اليسير جدا عليهم خصم السندات بكل بساطة ، وذلك لمجـــرد تفادي مواقع

---

(١) نسبة الى ماني النبي الفارسي الذي كان يرجـــع الخليقة الى مبدأين ، أحدهما خير في جوهره وهو الله أو النور أو الروح ، والثاني شرير في جوهره وهو الشيطان أو المادة أو الظلام ، مفسرا بذلك تواجد الخير والشر في هـــذا العالم · وان المانوية لتشمل كل عقيدة تقوم على أساسين المبدأين المتناقضين للخير والشر (المترجمة) ·

(٢) Henri Pirenne : Les périodes de L' Histoire Sociale

الكنيسة ٠ وعلى أي حال فلا بد من الاعتراف بالواقع التالي ، ألا وهو أن التجار الصيارفة ما كانوا يجرون الخصم ، بل كانوا يخفون قروضهم تحت قناع عمليات من البورصة المعتبرة مشروعة ٠ » (١) ولقد أهملت كثيرا العقائد الاقتصادية للعليمين docteurs ونتائجها على سير الرأسمالية ٠ فما الذي كان يعنيه بعبارة « الربا بسعر عادل » ؟ لم يكونوا يقصدون تكافؤ القيم ، بل مجرى الصفات التي تسودها المزاحمة ٠ ان العقائد المدرسية لم تمنع تطور المصرف ، بل عدلت صفته بتجريمها القرض بالفائدة وبموافقتها على صرف القطع بين مكان آخر ، وبذلك وفرت لاصحاب المصارف وسيلة ممارسة مهنتهم دون المساس بتعاليم الديانة السائدة ٠ وان الابتهالات التقية الموجودة في رأس دفاتر الحسابات تبين أن أصحاب المصارف مؤمنون كعامة الشعب ، وما دامت العقيدة الدينية توفر لهم الواسطة اللازمة ، فانهم يوفقون اذن بين افعالهم ومتطلبات الاخلاق ٠

وثمة فعل بين هذه الافعال لعب دورا أساسيا ، اذ ما كان يمكن أن تتحقق تطورات الصناعة بدون رساميل وبدون وسائط دفع خاصة ٠ لكن الرساميل لا تكف عن التجمع ، كما لا تكف وسائط الدفع عن التكاثر ٠ ان التجارة البحرية والمستعمرية الكبرى تجمع الرساميل في اوروبا الغربية حيث يتكدس القسم الاعظم من انتاج عالمي الذهب والفضة في تزايد

---

(١) Roymond de Rooves , L' Evolution de La Lettre de Cfange xiv ᵉ xviiᵉᵐ Siécle

التواصل • غير أنه ما كان يمكن أن يكفي هذان المعدنان للمدفوعات ، كما كانت سرعة تداولهما المحدودة جدا تزيد الشعور بعدم كفاية كتلتهما • وهكذا تطور التكنيك المصرفي ، فنشأ نوع جديد من العقود بين السنوات ١٢٧٥ ـ ١٣٥٠ كانت الحقوق الرومانية جاهلة به ، وهو عقد القطع الذي ورد ذكره بادىء الامر في مستعجل رسمي أفسح مكانه فيما بعد لمستعجل بسيط أدمت خاصيته كعقد قابل للتأكيد والتنفيذ الى السند • وقد حولت ممارسة التظهير هذا السند الى سند قابل للصرف والتداول ، وهي عملية سينتج عنها كل البنية المصرفية للعالم الحديث •

وليست الصفة الدولية للسوق النقدية شيئا مستحدثا في القرن السادس عشر ما دام تاريخها يعود الى أيام معارض شامبانيا ، لكنها تتسع في انكلترا ، وفي البرتغال ، وفي كاستيليا ، وفي الاندلس ، وفي ألمانيا • وتزدهر مدينة انفرز ، كما ينتصب متمولو اوغسبرغ كخصوم للشركات القديمة • ومع ذلك فان القرن السادس عشر لم يحمل التبدل الاساسي الى بنية السوق النقدية ، اذ ظل المصرف تجارة بالمال لها صفة المضاربة ، فيما بقيت القواعد القانونية معارضة لتطور عملية الخصم ، وانعدام التظهير عائقا لتداول السندات التجارية بصورة حرة • ان التحولات الحاسمة قد نتجت عن تطبيق التظهير والممارسة الحرة لعملية

الخصم ، بحيث تعود الانظمة المالية الحديثة الى القرنين السابع عشر والثامن عشر (١) ٠

أما الاجور ، فان ثباتها يتناقض في القرن الثامن عشر مع تحولات الاسعار ٠ ان ارتفاع هذه الاسعار هو دليل على صعود البورجوازية ، كما أن مصالح هذه الطبقة « الصاعدة » هي تعبير عن أخلاق اجتماعية ماكان يمكن للاخلاق الفردية الا الارتباط بها ٠ اذ أعباء الحياة تزداد في القرن الثامن عشر بقدر تدني مستوى الحياة ، اذ أن ارتفاع الاجر الاسمي يوافق انخفاضا في الاجر العقلي ٠ ولسوف تجد البورجوازية عام ١٧٨٩ ، وقد سحرها وعي تفوقها الاجتماعي ، سندا لها ضد الاقطاعية عند أهل الريف ـ ودراسة الريع تفسر القضاء الذي أعقب ذلك الاتفاق ٠

ولقد انتهت البروتستانتية ، قبل الكاثوليكية ، الى التساهل حيال روح العصر ، فتطورت عملية خصم السندات التجارية في انكلترا بادىء الامر ٠ كانت السندات هنا مشبوهة في الدوائر الحكومية وعند عامة الناس على حد سواء بفعل تقليد قديم ، ولم تكن لندن بعد في مطلع القرن الثامن عشر سوى مركز ثانوي ، الامر الذي يفسر تطور عملية الخصم فيها بصورة أسرع منها في أمستردام ذات البيئة الاكثر تحررا ، ولكن المرتبطة بشدة بالمراكز القارية الاخرى ٠ واتسعت الحركة مع ازدهار التجارة الكبرى والصناعة ، بعد معاهدتي

---

(١) Giulio mandich , Le Pacte de Ricorde et le Marché italien des changes au XVII Ciècle

اوترخت عام ١٧١٣ وباريس عام ١٧٦٣ • عندئذ قدم مصرف اسكوتلندا حصصا في الارباح بلغت ٢٠٪ ، وتفوقت لندن على أمستردام ، وعمت الشركات المساهمة • وأصدر جون فريك في ٢٦ آذار ١٧١٤ النشرة المالية الاسبوعية الاولى • وكانت فرنسا تعرف قبل جون لود الشركات المساهمة والقروض لحملة الاسهم والصفقات الآجلة ، لكن حاجاتها كدولة تقف على عتبة الافلاس بنتيجة حروب لويس الرابع عشر هي التي دعتها الى الاصغاء الى لود هذا بالاحرى من حاجات التجارة الكبرى • ولم يكن النقد في نظر لود سوى واسطة للمبادلة ، أما المشكلة الكبرى فهي تأمين تداوله ، ولقد كانت مثل هذه القضايا حاسمة • ان الاصلاحات لاتدين بشيء الى الفكر الفلسفي ، فحين كان فيريديك الثاني يخلق مستودعات الاسلحة أو يوزع الماشية والبذار كان يسخر من موتتسكيو ، ومن فولتير ، ومن روسو في مثل سخريته من الفيزيوقراطيين ، بينما كانت كاترين تكتفي باطرائهم ، وجوزيف يبلغ حافة الخراب نتيجة الاصغاء اليهم • ان مؤسسات اوروبا تدين بالقليل جدا لفرنسا القرن الثامن عشر ، لكنها تدين كثيرا لفرنسا القرن السابع عشر ، كما تدين كثيرا أيضا لانكلترا •

وكان كل شيء ، على أية حال ، يتوجه اذن بصورة أكثر أو أقل مباشرة وفقا لانكلترا »

الانطلاق الصناعي

الانكليز هم الذين استثمروا صناعيا ، للمرة الاولى ، الفحم الحجري وفلز الحديد · وكانت الصين تعرف الفحم الحجري منذ آلاف السنين ، لكن استعماله ظل أمرا طارئا ، باستثناء منطقة لييج وفي جوار نيوكاسل ونوتنغهام ، حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ولا يتحدث توماس مور عن « فحم الارض » لان استخدام الفحم النباتي ظل أوسع انتشارا من استخدام الفحم حتى عهد الملكة اليزابيت · لكن الفحم الحجري أصبح أكثر المحروقات استعمالا عام ١٦٤٠ في لندن (وهي أكثر بلدان اوروبا سكانا وقتذاك) واكثرها انتشارا في المانيفاكتورات · وقد لعب الفحم الحجري دورا أساسيا في الحضارة الصناعية بفضل تأثيره على الصناعات التي تستخدمه · وكان هذا الفحم منذ بدء استخدامه أنسب لانتاج البضائع الرخيصة منه لانتاج الاشياء الفنية والترفية بحيث أعطى استخدام هذا المحروق الجديد أهمية جديدة للبضائع العادية التي كان شأنها مهملا في اوروبا العصور الوسيطة وفي عصر النهضة لمصلحة العمارات الدينية والقصور

الملكية الكبرى وصناعات الفنون والسلع الترفية ٠ لقد أصبح الاهتمام بالكمية امرا واجبا من وجهة النظر الاقتصادية ٠ ولا ريب ان العصر الوسيط والنهضة عرفا تطورات تكنيكية عديدة ، اذ لم تكن اوروبا ما قبل الاصلاح يعوزها روح الاختراع ، ولا النتائج ايضا ٠ لكنه ينبغي التمييز بين **التطور** التكنيكي **والاساليب** التكنيكية ، بين **الاستقصاء التكنيكي واستعماله التكنولوجي** ٠ ولهذا المعنى فان استثمار الفحم الحجري وتشغيل الافران العالية يشيران الى تبدل في الاتجاه في مقاصد قسم من الاقتصاد الاوروبي ، وهو اهتمام كمي تظاهر تقريبا في سائر الصناعات المدخلة الى انكلترا خلال فترتي حكم اليزابيت وجاك الاول ٠ والشيء الثوري حقا في انكلترا ذلك الحين ليس هو زيادة حجم الاموال الموظفة بقدر ما هو توظيف مبالغ كبيرة منها في معامل كان تطورها قليلا حتى ذلك الوقت ، ذلك أن هدف التوظيف اعظم مغزى من حجمه ٠ وكان ثمة عدد هام من المشاريع الصناعية الكبير في مجالي المال والتجارة قبل الاصلاح ، لكن معظمها ملك للسلطات الاكليريكية والعلمانية ٠ اما الاتجاه نحو المشروع الصناعي الكبير الخاص فقد كان مرتبطا بتبدل الهدف ، أي بالبحث عن الكمية ٠

وحوالي منتصف القرن الثامن عشر ، كانت الثورة الصناعية الاساسية قد استكملت عناصرها ، وانكلترا التي ظلت طويلا متأخرة قد انتقلت الى مركز القيادة ٠ كانت انكلترا « على الهامش » في العصر

الوسيط ، لكنها أصبحت مركز الانتاج الصوفي في عهد هنري الثامن ، ثم مصدرا للمواد الاولية بالأحرى منها بلدا زراعيا وصناعيا حقا ، في حين لم يؤد تدمير الأديرة من قبل هذا المليك نفسه سوى الى زيادة التأخر • وكانت مساهمتها الاولى في أساليب الفكر والعمل الجديدة هي كوكبة علماء القرن السابع عشر : جيلبرت ، نابيير ، بييلي ، هارفي ، نيوتن ، هوك ، الخ • وكان الانفصال عن الماضي امرا يسيرا بقدر ما كانت الامور الواجب الانفصال عنها أقل عددا ، فيما يشكل التوزع الجغرافي لمصادر الطاقة الجديدة عاملا مساعدا من جهة أخرى • عندئذ حدث انتقال مفاجىء لاهتمام الناس نحو القيم النقدية ، وتبدل تام في آفاق الحياة ، وقيام « رأسمالية فحمية » كانت تبشر بسائر اندفاعات القرن التاسع عشر ، الاندفاعات نحو الذهب ، ونحو الحديد ، ونحو النحاس، ونحو الماس • لقد أثرت روح المنجم في الاقتصاد برمته ـ وفي العضوية الاجتماعية نفسها •

وفي مطلع القرن السابع عشر ، كان دود دادلي يأمل في احلال الفحم الحجري مكان الفحم الخشبي في صناعة التعدين ، وهو الهدف الذي حققه أبراهام دارلي عام ١٧٠٩ ، وهكذا أصبحت الافران العالية الجبارة ممكنة • وكانت هذه الطريقة مطبقة عام ١٧٦٠ في مقاطعة شروبشاير وفي كل شمالي انكلترا • وتطورت صناعة الصلب مع اكتشاف مضخة تغذي الفرن بالهواء ، وتلك هي مضخة واط البخارية • وان ما أعقب

ذلك من زيادة الطلب على الحديد قد ضاعف من الطلب على الفحم : ان هذا المركب التكنيكي التكنولوجي هو أحد خصائص النصف الاول في القرن الثامن عشر ٠

ولم يكن رجل العصر الوسيط والنهضة يعرف أن يحسب ، اذ لم يطور العلم الاغـريقي ما يدعى اليوم Logishique ويصر باسكال في كتاب اهواء الآلة الحاسـبة الى رئيس الوزراء سينيه عـام ١٦٤٥ على صعوبة العمليات القلميةالتي تجبر على « حفظ واستعارة الارقام الضرورية » والتي تتطلب « انتباها عميقا يتعب الذهن في وقت قصير » ٠ وكان العد يجري في زمن رابليه بمعونة تلك الرقع من الشطـرنج التي تركت اسمها لوزير المالية في انكلترا ٠ ولكن « تاريخ علـم قياس الزمن يقدم لنـــا مثالا باهرا عن مولد الفكـر التكنولوجي الـذي ينفذ بصورة تدريجيـة الى الفكر ـ والواقع ـ التكنيكيين نفسيهما ويحولهما ، ويرفعهما الى مستوى أعلى ، وان ما يفسر بدوره كيف استطـاع التكنيكيون ـ ساعاتيو القرن الثامن عشر ، ان يحسنوا ويتقنوا الادوات التي لم يستطع أسلافهم اختراعها ، هو كونهم يعيشون في جو آخـر ، وكونهم مصابـين بعدوى الدقة ٠٠٠ انما تتجسد الدقة في عالم الاشياء التقريبية بواســطة الأداة ، وانما يتوطــد الفكـر التكنولوجي بواسطة صنع الادوات » (١) ٠

---

(١) راجع في عدد ايلول ١٩٤٨ من مجلة Critique الصفحات ٨٠٦ ـ ٨٢٤ ، مقالة Alexandre Koyré بعنوان : Du monde de l'à - Peu - Présà l'univers de la précision

وكان تطور التجـــارة يخلق في الوقت نفســه حاجات جديدة • لقـد استوردت ليفربول من الشرق أنسجة قطنية أدى نجاحها الى قيام صناعية تقليدية لها في مانشستر ، فأضحت ليفربول عندئـــذ مستوردة للقطن الخام • بيد أنه لم يكن بد من منافسة العمال الآســـيويين الذين يعيشون في مستوى منخفض مــن الحياة ويتحلون بمهارة يدويــة يجهلها الاوروبيون ، فكان ذلك أحــد الاسباب الرئيسية في اختــراع آلات جديدة • لقد نتجت سائر الآلات في ذلك الحين ، وعلى العموم سائر الاختراعات التكنيكية ، من عدم التوازن الاقتصادي ، ومن ضرورة تخفيض سعر الكلفة ، كما نتجت أيضا عن امكانية ايجاد رساميل رخيصة وتحقيق أرباح ضخمة • وهـــذا ما يفسر لماذا لم تكن هـــذه الاختراعات من عمل العلماء ، بل بالاحرى من صنع عمـــال يدويين ، من صنع « أبناء مهنة » يعـرفون بالممارسة موضوع أبحاثهم • لقد كان هيرغريف حائكا ، ثم صار نجارا ، وكان كرومبتون غزالا وحـائكا ، وآل داربي حدادين ، كما كانت عملية التعدين مـن ابتكار حداد يدعى هنري كورت ومعاونه بيتر اونيونز، وذلك عـام ١٧٣٣ • ولقـــد جعلت آلـة نيوكومن « صناعية » عام ١٧٤٦ من قبل جيمس واط ، وهو صانع أدوات مخبرية ، الخ • ولقـــد استخدم واط الجدول الحروري الذي وضعه بلاك ، فكان العلم يتحد هكذا مع التكنيك • واما كان يتم اكتشاف هذه العمليات من قبل العمال العاديين ، كان العلمـاء يعمدون الى

دراستها واكتشاف قوانينها ، مهيئين بذلك انطلاقة القرن التالي :

كان كل اختراع يخلق عدم استقرار جديد يحتم بدوره البحث عن آلات جديدة • ومثال ذلك ان اختراع « المغزل » من قبل كرومبتون عام ١٧٧٩ أدى الى انتاج خيوط غزل أجود صنفاً بكثير ، لكن عامل الغزل أصبح عندئذ متقدما على عامل الحياكة الذي يشتغل بيديه بعد ، بحيث لم يعد الغزالون يعرفون كيف يصرفون بضاعتهم ، فبدأوا يصدرونها الى القارة ، بكل ما في ذلك من مخاطر المضاربة • وتفسر هذه الحادثة أبحاث كارترايت الذي اخترع عـام ١٧٨٥ النول الآلي الذي عم استخدامه في كل مكان تقريبا منذ عام ١٨٠٠ • وتظهر منذ ذلك الوقت عواقب « الصناعة الكبرى » ، أعني أزمات فرط الانتاج (أزمة القطن عام ١٧٨٨ ، مع ارتفاع الاسعار الذي أعقبه التدهور عام ١٧٩٣) ، وزيادة السكان وازدحامهم في المدن ، وتشكل طبقة من الرأسماليين الصناعيين لم تكن تفكر بعد سـوى في الانصهار في طبقة النبلاء ، وتطور البروليتاريا • ومنذ عام ١٧٨٥ بدأت الاضرابات التي تميزت وقتذاك بأعمال العنف التي تتناول الآلات والاشخاص على السواء • لقد بدأ صراع الطبقات • وان الحياة الاقتصادية تتجه اذن وفقا لقوى جديدة وأهداف جديدة وحوافز جديدة ، فشرعت بنتيجة ذلك الترابطات الاجتماعية في التكون ، بينما كان البعض يسعون لان يجدوا في الطبيعة من جديد نقاوة ستتغنى بها الرومانطيكية •

الثورة الزراعية

عندئذ حدثت في اوروبا حركة « رجحان » • لقد قرع انبثاق الآفاق الاطلسية في الحياة الاقتصادية ناقوس التفوق المتوسطي ، وذلك فيما كانت البلدان المحيطة بالبحر الابيض المتوسط تفتقر الى مصادر الطاقة ، وبالخاصة الفحم الحجري ، التي كانت القوة الصناعية تقوم عليها • وهكذا انتقلت نحوشمالي غربي اوروبا ثورة ظلت حتى ذلك الحين ضمن حدودها القديمة ، والحقيقة ان الطرق التجارية المارة بالبحر الابيض المتوسط لم تهمل الا حوالي نهاية القرن السادس عشر ، حين تمكن الانكليز والهولنديون من السيطرة بصورة فعالة وأفضل مما فعله البرتغاليون على مناطق انتاج التوابل • وكان البحر الابيض المتوسط يعاني في نفس الفترة أزمة في النقود ، بينما كان مقدور الانكليز والهولنديين أن يبتاعوا كل ما يشاؤون من الاسواق الهندية عدا ونقدا ، وذلك بفضل ما يملكون من فائض النقد • وقد نتج هذا التفوق البريطاني ، الذي يشكل تعبيرا عن حركة « الرجحان » تلك ، عن عناصر أخرى أيضا ، لكن هذا الانبثاق للمحيط

الاطلسي في امكانيات العالم القديم واهدافه ، وهذا الانحطاط الذي أصاب البحر الابيض المتوسط ، قد كانا عنصرين أساسيين فيه .

كان من الطبيعي ألا تبقى هذه الحركة دون تأثير على الحياة الريفية ، بل تظهر فيها بكل ما تمتاز به العطالة الارضية من انزلاق . لقد كان ثمة **ثورة صناعية وثورة زراعية** ، وقد امتدت هذه الثورة الاخيرة طوال سنوات عديدة ، بل طوال قرون . وان صفتين تميزانها ، امحاء العبوديات الجماعية التدريجي والمستحدثات التكنيكية . وكان لهاتين الحركتين روابط متينة ، وحين توافقتا برزت الثورة الى وضح النهار ـ لكنهما لم تكونا متعاصرتين تماما ، اذ سبق الهجوم على العبوديات الجماعية التبدلات الزراعية في بلدان كثيرة . ففي انكلترا لايعود تاريخ الحركة التي قامت في مصلحة المسيجات enclosvres الى زمن تدخل البرلمان ، بل ان مستشاري الملكة ، في عهد اليزابيث ، أخذوا على عاتقهم حيال دمار التنظيم الوسيطي للمجتمع أمر اقامة بناء جديد . لقد جعل توماس توسير من نفسه ، منذ عام ١٥٥٧ ، في كتابه **النقاط المائة الحسنة للفلاحة** ، البطل المنافح عن المسيجات ، لكن علماء الزراعة لم يجمعوا الا بصورة تدريجية على ادانة الحقل المفتوح .

فلا استخدام المراعي الدائمة ، ولا تفسخ الحقول المفتوحة ، ولا تملك الاراضي المشاعة ، كانت بحد ذاتها أمورا مستجدة . لقد تلقت هذه العمليات الثلاث

دفعا جديدا ابتداء من السنوات ١٧٤٠ ـ ١٧٥٠ بسبب ارتفاع أسعار الحبوب ، وما نتج عن ذلك من صعود في قيمة الاجور ، وزيادة في السكان ، ومستوى أعلى من الزراعة • وتفوق انصار المسيجات بصورة نهائية منذ اتضح العبث الاقتصادي للحقل المفتوح بنتيجة الطرق التكنيكية الزراعية الجديدة وتعاظم الطلب على المنتجات الزراعية •

الصراع بين عالمين

ان القرن الثامن عشر عصر صراع بين عالمين ، العصر الوسيط الذي كانت الطرق التكنيكية الحديثة والمفاهيم الجديدة تتابع عملية تهديمه ، مع ما في ذلك من خطر قلب النظام الاجتماعي ، والأزمنة الحديثة التي كانت تغرس جذورها في تربة ملغومة في أماكن عدة • وفي عام ١٧٨٩ ، كانت باريس تعيش الحياة الاقتصادية المحدودة لقرية كبيرة ، لكن العبارة الاخيرة من العناوين الصغيرة **للموسوعة** تنطوي على مغزى بعيد : **القاموس المقنن للفنون والعلوم والحرف** • فلم تعد الحرف « الميكانيكية » معتبرة بعد الآن مهنا حقيرة بالمقارنة مع « الفنون الحرة » ، بل هي في سبيل الترقية الاخلاقية والاجتماعية • وان الزمان الذي تصفه **الموسوعة** ليشكل انتقالا بين الورشة التعاونية وماسوف يسميه ماركس في **رأس المال** «الآلة العدادة» • فالعامل الذي يسير الآلات يتضاعف أيضا في أغلب الاحيان بصانع

بالمعنى الحالي للكلمة ، فهو يعرف اذن بأنه « صانع يشتغل بأية حرفة كانت » ، بينما كلمتا « عامل » ouvrier و « صانع » Artisan هما تعبيران مختلفان جدا : ان نظام الحرف التعاوني يتماشى مع الصناعة الكبرى الوليدة .

ويسترد العمل اليدوي اعتباره ، ويتوجه الانتباه الى مظهره التكنيكي ، وتوصف الآلات بدقة تفصيلية . بيد أن مؤلفي **الموسوعة** لا يتصورون ان في مكنة الآلة الافلات من خالقها والصيرورة بحد ذاتها مبدأ حضاريا ، فاسطورة الساحر المتمرن شيء ما كان يخطر في بال . ومع ذلك فقد كانت بعض المانيفاكتورات تضم منذ ذلك الحين آلافا عديدة من العمال : عندما ينحني آدم سميث عام ١٧٧٦ على تقسيم العمل ، فانه يجرم بكل بساطة تبعثر الحرفة الصناعية الى مجموعة كبيرة من المهام اليدوية المجزأة . وكان الناس يكادون لا يقلقون بعد للبطالة التكنولوجية ، ومونتسكيو لا يلوم الا بصورة عابرة الطواحين المائية « لفرضها الراحة على ما لا يحصى من الايدي العاملة » . هكذا تطرح قضايا الاقتصاد الرأسمالي الكبرى ، لكنها لا تدرك بعد ، اذ يظل الفكر متأخرا عن الاحداث . ويبشر الايمان بالتقدم التكنيكي ، منذ ذلك الحين ، باسطورة « الانوار » والاناشيد السانسيمونية : ان الآلة رمز لانتصار الفكر على الخرافة . « ان أفضل درس تلقننا الموسوعة اياه ... هو ذلك الذي نستقيه من ايمانها بالتقدم البشري ... ويقود هذا الايمان بالتقدم الى مفاهيم التطور الاقتصادي

والاجتماعي مباشرة ، ويوحي بالجهود الواجب انجازها في سبيل التعجيل بالتطور وتوجيهه في منحى ملائم لمصلحة الانسان » (١) • وفي رأي الموسوعيين انه لا يوجد تقدم اقتصادي واجتماعي بدون تقدم زراعي • ويمكننا ان نقرأ في المقالة « الاقتصاد الفلاحي » ما يلي : « الاقتصاد الفلاحي هو فن معرفة سائر الاشياء النافعة واربحة الخاصة بالريف ، وتوفيرها والاحتفاظ بها ، والحصول منها على أكبر فائدة ممكنة • وان هذه الطريقة في الاثراء لذات سعة مدهشة » • أيكون ذلك مفهوما فاوستيا ؟ ربما ــ مكنه ماركسي منذ الآن • ونجده مشروحا أيضا في المقالة « الزراعية » • وتتبين لنا من هاتين المقالتين الحتمية التي تربط الانتاج الزراعي بمستوى حياة العصر • ان سائر قضايا الاقتصاد الكبرى مطروحة هنا بعبارات محسوسة : العلاقات بين الانتاج والاستهلاك ، وبين الانتاج والمردود ، وبين مستوى الحياة ونسبة الوفيات ، وبين القوى القومية والتجارة الدولية ، الخ • ان هذه الروابط الحتمية البسيطة ، لكن ليس المبسطة ، هي في أصل المفاهيم الحديثة عن الدخل القومي وانتاجية العمل ، ولسوف يعاد اكتشافها بعد قرن ونصف القرن•

ولقد بين لنا آدم سميث عام ١٧٧٦ ، في كتابه **دراسة في ثروة الامم** ، وجود نظام طبيعي يتحقق حيثما

---

(١) Jean Fourashié , in annales de l'université de paris , 1952 , P.P. 137 - 151 .

تركت الطبيعة لذاتها ، وهو النظام الافضل : ان الانسان ميال الى تحسين مصيره ، وهو قادر على تحسين مصيره الشخصي ، بحيث يتوجب تركه حرا فلا تتدخل الدولة الا حين يتضح عجز الافراد عن اقامة المؤسسات الضرورية • هل العالم هو تلك الجمهورية الواسعة من المنتجين والمستهلكين المرتبطين ببعضهم بعضا ، وهل السلام هو نتيجة وعي هذه التبعية ؟ ان هذه الاسئلة التي طرحها الاقتصادي الاخلاقي السكوتلندي في أواخر القرن الثامن عشر لم تتلق أي جواب ، وما أسرع ماتتبدل الأزمان ، وما أسرع ما يعلم الوعي الطبقي القسوة ، الأمر الذي يتضح لنا من المسافة الفاصلة بين آدم سميث وتورغو (١) ، ورجال « لجنة التسول » ، والراديكالي مالتوس الذي نشأ على احترام روسو ، اذ أفسح تفاؤل سميث المكان سريعا لتشاؤم مالتوس ، وهو تطور تبرره الاحداث على أية حال • « لا يمكن فهم انهيار عالم عام ١٧٨٩ في انعزال عن المرحلة الطويلة من الضيق الذي سبقته • فخطورة الداء ناجمة عن درجة بعيدة عن اصابة عفوية نخرتها الفاقة الدموية سلفا حتى اعماقها • » (٢) تلك فاقة الدم الخاصة

---

(١) تورغو **Turgot** اقتصادي فرنسي ولد عام ١٧٢٦ ، وأصبح وزيرا للمالية في عهد لويس السادس عشر • الغى الجمارك الداخلية وكان يدعو الى حرية التجارة والصناعة (مترجمة) •

(٢) Ernest Labrousse : La Grise de L'economie Françaisi à Le fin de Iéancien régine et au début de la révolution P : XXVIII

بالقرن الخامس عشر ؟ ومع ذلك فان مداً من الرخاء يغمر لا القرن الثامن عشر وحده ، بل الثلث الاول من القرن التاسع عشر أيضا : لكن هذا المد يصعد بصورة غير منتظمة ، والتقلبات الاقتصادية تختلف أحيانا بصورة عميقة عن التبدلات المماثلة بدلا من أن تشابهها تماما ، بحيث اذا كانت التقلبات المديدة تتلاحق دون ان تتشابه دائما ، فقد يحدث أيضا ان يستمر تقلب مديد دون ان يتشابه مع نفسه · ان التغير الطويل المدى الممتد بين السنوات ١٧٣٣ ـ ١٨١٧ ليس **واحدا** ، بل يشتمل بصورة مستقلةعن الارتفاعات والانخفاضات القصيرة المدى على فترات من « التقدم البطيء » ، ومن « التقدم المتسارع » ، وبصورة غير عادية على فترة من « التراجع » · ويحدث الانطلاق على مهلته من ١٧٣٣ حتى ١٧٦٤ ، وتتزايد السرعة غداة حرب السنوات السبع وسرعان ما تصبح خارقة فتضرب الرقم القياسي للقرن ، ثم تأتي أزمة عام ١٧٧٠ فتحطم انطلاقة الرخاء هذه · وفي أعقاب جزر دوري طبيعي يبدأ حوالي عام ١٧٧٣ جزر غير طبيعي ذو أبعاد بين دورية ينتهي حوالي عام ١٧٨٧ · عندئذ تعاود الحركة الاساسية مسيرها وتستمر حتى السنوات الاخيرة من القرن ، فتبلغ فترة القنصلية والامبراطورية حيث تحث الخطى من جديد · وكانت الحالة العمالية ، في هذا الاقتصاد القديم الطراز ، محددة « من الداخل » أقل منها خاضعة « من الخارج » لمنحنى أسعار الحبوب · ان الحوافز الكبرى تنطلق من سوق القمح ، وبهذا

المعنى يخفي اقتصاد القرن الثامن عشر « الطراز القديم» بعد ، فلا نجد فيه تمثيلا جماعيا « لمستوى من الحياة » ينبغي المحافظة عليه مهما كلف الامر ، وتظل الازمة الإقتصادية عبارة عن تراكب من الكوارث • ولعل عدم الاستقرار الدوري لمستوى الحياة لا يقيم عائقا مطلقا في وجه مولد مفهوم عن مستوى للحياة ، لكنه يعوق ذلك المولد فقط • وان الارتفاع الدوري لتكاليف الحياة يعني اليوم نشاطا في الاعمال ، غير أن معناه كان على نقيض ذلك تماما في اقتصاد الايام الماضية • وعلى أية حال ، فان الرساميل المنتجة تنمو بتأثير ارتفاع الاسعار والارباح ، وتستطيع امتصاص كميات اكبر من العمل، لكنها كميات غير كافية بالقياس الى التوسع في عدد السكان • ويتطور معدل الاجرة النقدية ، وتتسع كتلة الاعمال ، فهي تزيد بنسبة ثلاثة ارباع اذا ما قدرت بالنقد ، فيما لا تزيد تكاليف الحياة الا بنسبة النصف• فحصة الاجور من الارباح تنمو في قيمتها المطلقة ، وفي قدرتها الشرائية ، لكن صاحب الربح ، أي الناس ، ينمو بسرعة أكبر ، بحيث تنقص الحصة « الفعلية » لكل فرد ، ويتناقض سقوط الاجور النسبي مع صعود الدخول الرأسمالية • وهذا هو ينبوع تفكير مالتوس : لقد قام المجتمع الاقتصادي بواجبه خير قيام ، معنى نسبة الولادات ان تكون عاقلة •

بيد أن ذلك العصر كان عصر هجمة قوية من زيادة السكان وعصر انطلاق تكنولوجي سوف يتركان طابعهما في القرن التاسع عشر برمته • وانه كذلك عصر

نيوتن ولوك ، وعصر أسلوب فلسفي سيستعيض عن الكتاب المقدس بالطبيعة الحرة Liber Naturee ولقد وجد مؤلف سبينوزا **المبحث اللاهوتي ـ السياسي** الذي ظهر عام ١٦٧٠ مترجما له في انكلترا منذ عام ١٦٨٩ ، كما ان ثورغو يقرر في **الموسوعة** : « ان نيوتن قو وصف البلد الذي اكتشفه ديكارت » ، فلا يعدم هذا المفهوم الميكانيكي ، رغما عن مذهب لوك الحسي ، القدرة على الهام اولئك الذين يمنون على قضايا الانتاج الكبرى ٠

وهكذا تتهيأ الثورة في مدنية القرن الثامن عشر ، المدنية التي هي مستقر اجتماعي متعدد البنيات ، لكنه نابض بالحياة في تبعية متزايدة حيال الحياة الاقتصادية الحديثة ٠ المدينة ـ البورغ ـ البورجوازية : ان هذا التفسير يملك قوة المخطط ٠ ولا يمثل التيارات الاقتصادية الى التظاهر في تيارات اجتماعية الا حين تتعرض للتجمعات المدنية الكبرى ٠ ولسوف ينحني الفلاسفة على العلاقات البشرية الناجمة عن التمركز الصناعي في المدن ، كما سوف يبني كارل ماركس **رأس المال** على التحليل السريري للعلاقات الاقتصادية وعواقبها الاجتماعية في انكلترا القرن التاسع عشر ٠ ولسوف تقوم حضارة مدنية شيئا فشيئا مكان حضارة عقارية ، وسيكتسب هذا التحول المفاجيء احيانا صفة فاجعة بفعل كون سكان المدينة الجدد هم في غالبيتهم العظمى تقريبا ، ريفيين طردوا من اراضيهم ، ويصبح التوسع السكني عاملا تفسيريا منذ دراسته من خلال

البنيات الاقتصادية التي تتطور تبعا للمشاركة بين الآلة البخارية والآلة اليدوية ، ولا تبقى دون مبالاة بتعاليم « الفلاسفة » • وعندئذ لا نعدد **الموسوعة** « موسوعةحلول » ، بل تصبح « موسوعةمشاكل• »(١)

فمن غوتنبرغ الى كوبرنيك ومعماريي النهضة ، ومن لوثر وأغناطيوس دي لويولا الى سرفانتس وشيكسبير ومونتين ، ومن ربنس الى ديكارت ، والى فولتير ، والى ديدرو ، الخ ••• تكاثر الرجال الذين يؤلفون رمزا ، وكل منهم يجسد مغامرة ، فيحدد بذلك ما سوف يصبح أحد العناصر الاساسية للحضارة الاوروبية ، ألا وهو الحق الذي يملكه كل فرد في البحث بنفسه عن حقيقته ـ وتأسيس عظمته في نطاق هذه الاهلية • لقد تغيرت الازمان كثيرا ، واذا كان دير الايسكوريال(٢) قد شيد على مقياس الايمان ، فان شخصيات من البورسلين قد أنطلقت من الساكس لتغزو الصالونات • ولقد بنتاليزابيت القوةالبريطانية

---

(١) راجع دراستنا dux origines de la Cioilisation industrielle

في عدد شباط آذار ١٩٥٦ من مجلة Critque

(٢) Escurial ، بلدة اسبانية تبعد مسافة ٥٥ كم عن مدريد ، بني قربها قصر ودير بهذا الاسم في زمن فيليب الثاني وفاء لنذر قطعه هذا الملك على نفسه حين دمرت المدفعية الاسبانية في معركة سان كانتان كنيسة مكرسة للقديس لوران ، وقد شيد الدير على صورة مشواة تخليدا لذكرى شهادة هذا القديس (المترجمة)•

على قبر أسطول الارمادا ، وفي عام ١٦٤٨ كان لمعاهدات صلح ديستفاليا (١) مغزىوترجيع اوروبيان ، كما أطلق العش سان بيير فكرة اتحاد للدول الاوروبية ، فيما كانت أفكار روسو ، وقد وسعتها أفكار لوك ، تهب حماسة المفكرين ، وأكاديميات العلوم تتأسس في لندن، وباريس ،وبولونيا ،وبرلين ، واوبسال ، وستوكهولم • وفي الوقت نفسه ، كان باخ وهاندل يمكنان الموسيقى من الترجمة عن حقائق مشتركة بين جميع البشر •

لكن غوته أعفى البورجوازيين الالمان ، مع آلام الفتى فيرتر ، أساليب جديدة في الشعور والحب ، فشق الطريق أمام الرومانطيكية ، وهيأ « المناخ » الذي سيصبح بتهوفن أيضا رمزا فيه •

هل ولد القرن التاسع عشر من تلك الثـــورة الفرنسية التي أعلن كانت أنها صائرة ثورة اوروبية ، ومن تلك المعركة في فالمي(٢) التي قال غوته عنها انهــا

(٢) عقدت هذه المعاهدة عام ١٦١٨ بين أمبراطور ألمانيا وفرنسا والسويد لتضع حدا لحرب الثلاثين عاما • وقد منحت أمراء الالمان في الشمال ، بالاضافة الى توسيع رقعة أراضيهم ، حرية الدين ، والحق في عقد معاهدات التحالف مع الخارج ، كما أكدت فشل النمسا في محاولتها لتوحيد المانيا معها ، وقد كسبت فرنسا الالزاس بفعل معقول هذه المعاهدات (المترجمة) •

(٣) Valmy ، وهى قرية في مقاطعة المارن الفرنسية ، وقعت قريبا منها معركة دامية عام ١٧٩٢ انتصر فيها الفرنسيون على البروسيين وهم يهتفون « عاشت الامة » (المترجمة) •

تفتتح « عصرا جديدا » ؟ كلا ، بل ولد من التيارات الكبرى التي كانت تتطور منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، من التبدلات الاقتصادية ، والاجتماعية، والاخلاقية ، والنفسانية • كان عصر الصناعة الكبرى قد بدأ ، والصراعات الطبقية تتفاقم • وفي عام ١٦٢٠ ، أنزل المركب زهرة أيار May Flower في أميركا جماعة من المنشقين الدينيين ، من المتطهرين ، أسسوا انكلترا الجديدة • وظهرت مستعمرة ماساشوسيتس بعد ذلك بفترة قصيرة ، ومستعمرة ماريلاند عام ١٦٣٢ ، ولم يطل عام ١٦٣٦ حتى كانت أميركا الانكليزية تملك جامعتها الاولى ، جامعة هارفرد • لقد انطلقت الحضارة الاوروبية في المجال الاطلسي ، ولم تعد محصورة في القارة الاوروبية وحدها ، كانت توسع مداها ، وتتهيأ للاغتناء بالمجلوبات خارج الاوروبية • ان العصر الحديث قد ولد •.

الفصل الثالث

بحثاً عن المستقبل

في أواخر القـــرن السابع عشر ، كانت شعوب عديدة في آسيا وافريقيا وأميركا لا تبرح بعد في مرحلة الاحيائية Animisme والسحر العمومي ، وشعوب أخـرى ، وبالاخص الازتيك والماياس(١) ، في مــرحلة الايمان بالفلك والقوى الحياتية Astrobiologie : أن الروابط المنطقية بين الافكار تتقوى ، لكن قاعها يظل حدسيا ومفاهيمها صوفية ٠ ولقد توصل المسلمون الى العقلانيــة الكيفيــة ، مــع منطق المفــاهيم ، والسببية التوليدية ، والقياس المنطقي ، الخ ٠٠ أما الاوربيون الذين ابتدعوا هذه العقلانية الكيفية ، في اليونان في القرن السادس قبل المسيح ، فقد تجاوزوها بالعقلانية الكمية ، بينما كان باسكال ونيوتن واصحاب المذهب الميكانيكي يوسعونها حتى العقلانية التجريبية ٠ ماهو سبب هذا التقدم ؟ أنه تحرير الفرد في المحل الاول ٠ ومما لا ريب فيه أن الجماعات الاجتماعية كانت على

---

(١) الازتيك : هم من أقدم شعوب المكسيك ، وقد قضى فرنان كورتيز عام ١٥٢٠ على آخر أباطرتهم ، أما المايا فاحد الشعوب الهندية في اميركا الوسطى (المترجمة) ٠

بأس شديد بعد ، لكن السلطة الابوية ، وقوة النسب ، وضغط الكنيسة ، وفعل الدولة ، الخ ٠٠ لم تكن تقارن بالالزامات التـــي كانت تفرضهـــا ممارسات القبيـــلة الاحيائية ، وقواعد الطائفة الضيقة ، وطقوس العائلة الصينية ٠ ولقد حاول البعض تفسير اسباب هـــذه الروح الفردية المتعاظمة باعتبارات عرقية ، أو بحتمية جغرافية مزعومة ٠ بيد أنه لا بد من اللجوء الى اسباب أخرى ، كانحطاط النظام الاقطاعي ، واعادة بناء الدولة ، وانطلاق العلاقات التجارية ، واتقان اساليب الانتاج ، والصراعات الطبقية والازمات ، وتحسن مستوى الحياة ، الخ ٠ وكانت اعادة تنظيم العلاقات الدولية تساعد على التبادلات الثقافية وعلى تشكل جمهورية للآداب ، وكانت المسيحية مبدأ للفعالية ٠ لكن أوروبا كانت تملك منذ ذلك الحين ، فيما عدا الاساليب التكنيكية المتكونة منذ العصر الوسيط ، المدرسية الوسيطة ، والقياس المنطقي الاغريقي ، والهندسة الاقليدية ٠

وفيما عدا ذلك ، كانت أوروبا قد انطلقت الى ما وراء حدودها : ذلك أن غزو العالم الجديد قام ، في آخر حساب ، في أرتسام تجربة أوروبية للاستعمار فيما وراء المحيط (١) ٠ ففي نهاية القرن الثامن عشر ، كان التحول الذي حققته اوروبا في اميركا محسوسا جدا ، اذ أدخل الاوروبيون الى هذا العالم الجديد حيوانات

(١) G. Verlinden , Les Origines Coloniales De La civrilisation Ailantique , In Les Cahiers Mondiale 1953

ونباتات كانت مجهولة فيه حتى ذلك الحين ، ونقلوا اليه اساليبهم التكنيكية ، وبالخاصة الدولاب والآليات القائمة على أساس الحركة الدائروية (وهي أحدى قواعد حضارات العالم القديم) والقبة (شرط معظم العمارات الاوروبية) ٠

وجاء من أميركا الى أوروبا كثير من المزروعات الجديدة التي سوف تسهم في تحويل الحضارة الاوروبية، كالذرة ، والبطاطا ، والفستق ، والتبغ ، الخ ٠٠ ولكن أميركا سبقت فقلبت حياة أوروبا بفضل معادنها الثمينة ٠ ولم يحدث قط ، غداة مغامرة كريستوف كولومب ، ما يمكن أن يشبه من قريب أو بعيد « ثورة بحرية » ، بل كان الانكليز والهولندويون على السواء ، قبل عام ١٤٩٢ وبعده ، يتوقون في الدرجة الاولى الى تركة الهانس ٠ لكن ما حدث هو انتقال للمياه البحرية من البحر الابيض المتوسط الى المحيط الاطلسي ، وهذا الانتقال هو الذي يشير الى مطلع الازمان الحديثة ٠ لقد كف العالم ، ابتداء من السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، عن أن يكون مركزا حول البحر الابيض المتوسط ، وان يحيا من أجله ، ومعه ، وعلى نسقه ٠ ولما اصبحت اشبيلية ميناء العلاقات مع العالم الجديد ٠ أخذت أوروبا تتطلع أكثر فأكثر نحو الاطلسي الذي اصبح منذ ذلك الوقت محيطا للتجارة بالاحرى منه محيطا للمغامرات ٠ وانقلب الاقتصاد الاوروبي بقدوم المعادن الثمينة من اميركا ، وبالخاصة الذهب ثم الفضة ٠ وكانت النتيجة الاولى لهذا القدوم الكثيف من

المعادن الثمينة الى بلدان كان نقص النقد فيها شديدا بحيث يلجم المبادلات ويعوق الانتاج ، هو أرتفاع عام وطويل الامد للاسعار ، وتتالي الانخفاضات في قيمة النقد ، وهي انخفاضات قلبت البنيات النقدية وعجلت في حدوث ارتجاجات اجتماعية كان لهـا مغزى عظيم جدا : امتداد بورجوازية تجارية ومالية ارتفعت ، مع آل فوغر(١) وكثيرين غيرهم الى مصاف الامراء ، وانحطاط تدريجي لطبقة النبلاء التي ما عادت تحتفظ بمرتبتها وتألقها الا باستثمارها للنتائج التي حصل عليها خالقوا الثروة ، والتفوق الطويل الامد لآل هابسبورغ ، اسياد الذهب والفضة فيما وراء البحار ، الخ · ولقد كان لهذه الارتجاجات مكان اساسي في الاصول العميقة لثورة عام ١٧٨٩ ·

ومع ذلك ، فقد كان هدف اوروبا هو آسيا قبل كل شيء · ولكنه بينما تحقق فتح العالم الجديد ، وتنصيره ، وتصييره أوروبيا ، ظلت آسيا مستعصية تقريبا ، فقد رفضت الديانة الكاثوليكية ، ولم تشأ أن ترى في العلم الاوروبي سوى الفضول ، واستقبلت بعض الفنيين الاوروبيين دون أن تأخذ روح التكنيك · ومن المؤكد أن آسيا تطورت ، لكنها فعلت ذلك بتأثير قواها الخاصة بالاحرى منها بفضل احتكاكاتها مع الاوروبيين ، وبدون أن يطرأ أي تغير على روح حضاراتها · وكان

---

(١) Les Fugger ، عائلة من التجار والصيرفيين الالمان حصلت لبرهة من الزمن ، عام ١٣٥٥ ، على حق اصدار النقد (المترجمة)

تفوق أوروبا واضحا مع ذلك . بيد أن الاوروبي خاضع لحركة دائبة ، ومثله الاعلى هو الصراع ، والتوسع ، والتقدم أو التبديل ، وحب الاطلاع على الجديد ، وفراغ الصبر والتمرد حيال العقبات ، بينما الاسيوي ينطوي في ذاته على حلم دائب ، ويزدري الجهد ، ويمجد القوانين القائمة والافكار الموروثة ، ولا يثق بالجديد ، ويحترم سائر الاشكال الخارجية ، البشرية والطبيعية على السواء . واذا فشلت البعثات التبشيرية في تنصير آسيا ، فذلك لأن المسيحية توحدت مع حضارة أوروبا .

كانت هذه الفتوحات على العالم تتسع بينما الحركات الاقتصادية للقرنين السابع عشر والثامن عشر تطور في أوروبا نفسها سائر نتائجها الاجتماعية والنفسانية . لقد تطورت العلوم حتى درجة بعيدة ، متتوجة في العلوم الاجتماعية ، وكان تقدم المعارف قد نمى الايمان بتقدم متصل للانسانية نحو حالة أعلى ، باعثا عند الكثيرين شعورا بازدراء الماضي كان يدفعهم الى رفض المعتقدات القديمة والنصوص القديمة ، وفي نفس الوقت ما تتضمنه هذه النصوص وتلك المعتقدات عن حقائق ومحاولات لادراك الحقيقة . وكان من نتاج ذلك بعض الاستخفاف بالعصور القديمة وعداء حيال الكاثوليكية ، وتقدم للعقلانية في الوقت ذاته . وكانت هذه العقلانية تبشر بالموضوعية والمثالية المعاصرتين ، وتبشر في الوقت نفسه ، كرد فعل لهما ، بالحركات العاطفية التي ستؤدي الى تحديد الرومانطيكية . كان القرن قد انتهى بثورة ، وكانت زيادة الذهب والفضة ،

وتعاظم المبادلات مع بلدان ما وراء البحار ، قد قادا الى صعود في الاسعار الحقيقية • وكانت المدن تتوسع ، والبورجوازية تنمو في العدد والعدة ، لكنها اصطدمت بالطبقات الارستقراطية وبالحكم المطلق ، اللهم الا في انكلترا الاحتكارية ، حيث كان البورجوازيون يحسنون بصورة منتظمة أوضاعهم المدنية والسياسية • وفي فرنسا بالخاصة ، كانت البورجوازية تشكل الطبقة الاساسية • أيكون بشارة لصراع الطبقات ؟ أجل ، ومنذ ذلك الحين •

ثورة البروليتاريا

ان وعي البروليتاريا الـذاتي ، والاستقطابات السياسية المبالغ بها للرمزية الماركسية ، والانقسام بين العالم الكاثوليكي وعالم العمل ، يعود تاريخها جميعا الى منتصف القرن التاسع عشر • كانت اطارات اجتماعية جديدة قد حلت مكان الاطارات القديمة للحضارة قبل الصناعية • وكانت القوة الاجتماعية والسياسية لرأس المال لا تبرح في نمو متصل ، وكان الاقتراع العام قد وسع شيئا فشيئا المشاركة السياسية الى ما وراء حلقة بعض أصحاب الامتيازات ، وكانت احزاب الجماهير قد تراكبت ، بوصفها خصوما ، فوق أحزاب الاعيان واحزاب المراتب •

وكان تجاهل الهجرة الريفية قد أسهم في تكديس القوى الاحتياطية من سكان الارياف في مكانها ،

وذلك حتى درجة الزيادة الفائقة في السكان ، بقدر ما اسهم في ذلك ، في الوقت نفسه ، تضاؤل ازمات المعيشة ، وتحسن وسائط النقل ، وتعديل اوضاع الضرائب • وقد أمتص التقدم في زيادة السكان حوالي السنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ تلك القيمة الزائدة التي حررها تخفيف الضرائب ، بحيث تبين للناس عندئذ أن حدود « العبء » الكمي ، المبعدة بصورة أكثر أو أقل اصطناعا منذ نصف قرن ، قد تم تجاوزها • وتأثرت بذلك سائر الفئات الاجتماعية في الارياف في تواريخ مختلفة حسب سعة ثرواتها وطبيعتها ، فاذا جزء هام من السكان الريفيين ينفصل عن مشاغله المعتادة ليقع فريسة البطالة والبؤس ، وذلك بقدر ما كانت الزراعة آخذة في الوقت نفسه في التحول في اتجاه رأسمالي(١) •

الام صارت هذه الجماهير الريفية المجبرة على الهجرة ؟ لقد كان مقدرا للمجتمع الليبرالي أن يفرض عليها اسلوبا في التبعية ليست غايته ربطها بالمجتمع ، بل فصلها ، عنه وذلك هو استئجار أو شراء العمل وفقا لقانون العرض والطلب • ان الميزة الخاصة لشكل المجتمع الناشيء عن الانطلاقة الصناعية لا تقوم في تراتب فحصوص ، بل في تلك الآلية التي ترمي خارج المجتمع المنظم الخدم الماديين لهذا المجتمع نفسه • صحيح ان العامل يتمتع نظريا بمثل الوضع الذي يتمتع به

---

(١) Philippe Ariés : Histoire des Populations Francaises et de Leurs Attitudes Devant La vie

المواطنون الآخرون • وكذلك ليست حالته المادية هي التي تميزه عنهم • واذا أردنا شيئا أكثر من الدقة ، فان هذا الشرط المادي يتميز بانعدام الطمأنينة في العمل أكثر منه بمستوى الاجور ، وهذ يعني أن عامل المصنع يتميز عن المقولات الاجتماعية الاخرى بطراز حياته اكثر منه بمستوى حياته ، بوضعه الاجتماعي اكثر منه بوضعه المادي • أنه يحتفظ بمساهمة شرعية في الحياة القومية ، ما دام يقترع ويتمتع بحماية القوانين ، وأنه ليحتفظ كذلك بمساهمة اقتصادية فيها ، ما دام يعمل في خلق الثروات ويتلقى مكافأته لقاء ذلك • لكنه لا يحتفظ فيها بمساهمة اجتماعية ، ما دامت القيم الحضارية تبدع من قبل سواه ومن أجل سواه • أنه لا يعرف ، من كل ما يشكل الحياة الاجتماعية وتعابيرها الاسمى ، سوى صور شاحبة ، وأشكال منحطة ومسوقة لحسابه • أنه مبعد عن الجوهر التاريخي للامة ، هو « معزول » ، وطراز سكنه (« الضواحي العمالية ») يرمز الى نفيه •

واذا تمكنت الماركسية من ابتداع عبارتي « الحضارة البورجوازية » و « القيم البورجوازية » ، فذلك لانها كانت تخاطب أناسا يستيقظ فيهم وعي المنفى الذي يحتفظ بهم فيه المجتمع الذي لا غنى له عنهم • ومما لا ريب فيه أن البيولوجيا الاجتماعية أكثر تعقيدا مما تدعيه الماركسية ، لكن نظرية ماركس ظهرت الى الوجود حينما كانت تستطيع الاستفادة من سائر معونات المظاهر لها • اذن مامعنى ذلك الجناس الحتمي ؟

انه يعني أن الوعي الذي تتوصل اليه البروليتاريا شيئا فشيئا لاهميتها في المجتمع سوف يتحول الى وعي ، ليس بالضبط لعدم جدوى مختلف الفعاليات غير اليدوية ، بل للصفة العرضية والثانوية لهذه الفعاليات • لقد انتقل العالم البروليتاري من الفكرة الصحيحة عن كونه يشكل شرطا ماديا لا غنى عنه لوجود المجتمع الذي يحتقره الى الفكرة الاسطورية عن كونه المنتج الوحيد لهذا المجتمع ، من الفكرة الصحيحة عن كونه مبعدا عن المجتمع الحقيقي الى الفكرة الاسطورية عن كونه المجتمع الحقيقي الوحيد • ولقد كانت هذه الاسطورة أكثر فعالية فورية من الوعي النير للمركبات الاجتماعية • وان الماركسية ، المخطئة في ميدان التفسير التاريخي ، قد أصابت في ميدان القوة • وليست الجماهير العمالية « مستأصلة الجذور » فملايين الناس هجروا الاطر التقليدية لحياتهم ، وانخرطوا شيئا فشيئا في أطر جديدة ، واما طردوا من جماعات منظمة ، فقد خلقوا لانفسهم أطرا جماعية جديدة • واذا هم دعموا الحركات الثورية ، فليس ذلك لان هذه الحركات كانت الحركات الوحيدة التي وقفت بجانبهم ، بل كذلك لانهم نجحوا ضمن هذه الحركات ، وضمنها فحسب ، في ان يجدوا من جديد جماعية لهم ، وأن يجدوا تلك الروابط الاجتماعية التي حطمها « طغيان حصة الربح » • وكانت الكنيسة الكاثوليكية تشكل أحد عمد هذا المجتمع المنظم الذي هبت في وجهه الجماهير العمالية المبعدة عنه • ولم تكن تقدم ، وحافزها الى ذلك سياسي وفلسفي في وقت

واحد ، أي جواب على القضايا التي تطرحها التحولات المفاجئة في العالم سوى الاستسلام • ومما لا ريب فيه أن ذلك هو ما يفسر كون الاحزاب الشيوعية هي الاحزاب الاقوى في البلدان الكاثوليكية ، بينما هي غير ذات أهمية عمليا في البلدان غير الكاثوليكية ، وبالخاصة البروتستانتية ، كائنة ما كانت بنياتها الاقتصادية • ولقد جرت الامور فكأن الجماهير العمالية ، التي رفضها مجتمع كان يجد في الاكليركية احدى قواه الرئيسية ، قد دخلت في الاكليركية اخرى ، لا تقل عن تلك « سيطرة » وصرامة ، لكنها تحمل الى قضايا الحياة الحسية أجوبة أخرى غير الاستسلام والخضوع • وهكذا فان الشيوعية لا تشكل الحادا الا بالمقارنة مع الديانات التقليدية ، أما بالنسبة الى الحدث الديني نفسه ، فانها ديانة هي الاخرى •

لقد نجح الانسان في أطالة مدة حياته ، والعائلات تبذل الجهد كي تؤمن هي نفسها مصيرها الخاص دون الاعتماد بكل بساطة على العناية الالهية • وان الانسان الاوروبي لا يشك مطلقا في تفوق اوروبا • ان علم الميكانيك ، الذي اثبت قدرته في علم الفلك ، هو ملك سائر المعارف العلمية • وان « غوس » ليجسدد الرياضيات ، ولاتكاد تراكيب الفيلسوف «كانت» تجمع حتى يتم تجاوزها • ولم تعد صفوف المجتمع تنفتح أمام العلامة أو رجل الادب ، بل أمام المهندس الذي يخلق الثروات • وان النظام المتري ليقي من الخطأ العددي ، والقانون من الخطأ القضائي • وقد شجع

العلم على تطور فلسفة وأخلاق مستقلين عن الله ، فيما الحقوق تسجل وتكفل المكان الجديد للفرد في المجتمع الاقتصادي ... بيد أنه لم يكن في مقدور أي تكنيك وأي قانون أن يؤمنا السلام الاجتماعي .

استقرار البورجوازيين

كانت بريطانيا قد سحبت تقدمها في اصلاح القوانين والاوزان والمقاييس ، وكانت على الاخص قد تبنت بنية سياسية واجتماعية سهلة النفوذ على مؤسسات الائتمان والتسليف . لقد قام مصرف لندن عام ١٦٨٥ ، ومصرف فرنسا غداة الثورة ، ومصرف المانيا غداة التوحيد البسماركي : ان المؤسسات الاقتصادية الناشئة عن التجارة الاطلسية الكبرى تتسرب بصورة تدريجية الى أوروبا من الغرب الى الشرق . وان قدم أهمية نظام التسليف في انكلترا (في عام ١٧٩٣ كان لكل مدينة مصرفها الخاص) يفسر استقرار الماخينية فيها دون ان تثير هزات مماثلة لتلك الهزات التي حطمت المؤسسات السياسية على القارة .

ولكن مؤسسات التسليف هذه كانت بين أيدي البورجوازية ، وكانت الحال على غرار ذلك في فرنسا أيضا . وبهذا المعنى فان عام ١٨٣٠ يشكل تاريخا هاما ، اذ ان الارستقراطية العقارية ، بوصفها طبقة ، لم يعد لها اذن أي دور تلعبه في التاريخ الاجتماعي .

وحينما كان شارل العاشر يتوجه الى أرض المنفى ، كانت اشباح تتلاشى ، وطبقة تفقـد سيطرتها لتحل مكانها طبقة اخرى هي البورجوازية ، وقد كلف لويس فيليب الصيرفي جاك لافيت الذي لا يحمل اي لقب نبيل بتأليف الحكومة الاولى في عهده • وانه ليتضح للعيان منذ قيام النظام الملكي في تموز ان التطور الاقتصادي القائم سوف يعود بالفـــائدة قبل كل شيء وبصورة خاصة على البورجوازية الكبيرة ، لان البورجوازيين الكبار سوف يحتفظون لانفســهم ، من بين مصـادر الدخل ، بتلك المصادر القمينة باعطاء افضل النتائج • ان الزراعة لا توفر أرباحا قابلة لتوسع كبير • وعلى العكس من ذلك تنفتح امام الصناعة كما تنفتح امـام البورصة امكانيات ارباح غير محدودة • ولسوف تكون النتيجة الاولى للتطور الاقتصادي هي اغناء البورجوازية الكبيرة ، واذا أردنا شيئا اكثر من الدقة قلنا اغناءها اكثر من الطبقات الاخرى ، وفتح طبقة سوف تتميز من الآن فصاعدا الصفات التي ستتحلى بها : ان بعض البورجوازيين عملوا بالمانيفكتورة والصيرفة فجمعوا من هاتين الفعاليتين أرباحا طـائلة فاكتسبوا بذلك نعت البورجوازيين « الكبار » الـذي يفصلهم عن الفئـــات الاخرى من البورجوازية • وتلك ترقية اقتصاديـــة نسبية ومطلقة في وقت واحد ، تتناقض مع الانحلال المطلق والنسبي للثروات العقارية • وسرعان ما ستؤدي الترقية الاقتصادية الى ترقية اجتماعية ، فتظهر اسماء مدعوة لان تصبح رموزا ، بردلي ، شنايدر ، بيريري ،

لافيت ، دولوســـير ، بيرييه ،سيير ، هوثينفــر ، ماليه ، روتشيلد ، الخ ٠٠ وأخيرا فقد تدهورت هذه البورجوازية الكبيرة ابتـــداء من السنوات ١٨٧٥ ــ ١٨٨٠ ، اذ استسلمت بعدما جابهت الوعي الطبقي للطبقات الاخرى واتساع الحقوق الانتخابية امام القوة المتعاظمة للطبقات المتوسطة والحركة العمالية ٠ ولم تكن قد حرمت بعد ، حوالي عام ١٨٨٠ ، من أي جزء من سلطاتها الاقتصادية ٠ كانت لا تبرح تنتفع بالنفوذ المرتبط بتملك الثروات ، وكــذلك مــن ذلك النفوذ الذي ينجم عن ذكرى الوظائف التي شغلتها ٠ لقـــد تنازل « الاعيان » عن تفويضهم في المجالس المحليــة وفي البرلمان ، فما عادوا ينتخبون ، لكنهم بقوا « اصحاب سلطة » ، فهم يحتفظون هكذا بسلطان طبقي (١) ٠

ولم تــكن المانيا توحي مطلقـــا في ذلك الوقت بالتطورات العزيزة على آرثر يونغ ، ولم تكن تبــدو ناضجة من اجل الدخول في العصر الصناعي ٠ كان عدد سكان المدن الاثنتي عشرة الكبرى لا يكاد يبلغ عــدد سكان لندن أو باريس ، وكان ٨٠٪ من الاهالي مبعثرين في الارياف ٠ كانت مدينة مثل برلين تشكل قبل كل شيء مقر مزارع تعمل في استثمار الاراضي المحيطة ، وكانت الراوبط بين المدينة الصغيرة والارياف المجاورة متينة جدا ، كما كا تقليد هذه الجماعية يحدد بصورة تفصيلية ، وقد كرسته قوانين الامراء ، طبقة كل فرد وعمله ، ولم تكن الملكية الخاصة تنجح قط في التسلل

(١) Jean L'homme , Le grande bourgeoise au Pouvoir

الى هذا النسيج من التقاليد المقننة • ولم يكن ثمة ما يوحي بقرب الثورة الصناعية او بالتبدلات « على الطريقة الانكليزية » ومع ذلك فان الفيضان الثوري الفرنسي انبثق في المانيا الوسيطة هذه بالذات • لقد أقام الحكام الفرنسيون وملك ويستغاليا على طول نهر الرين ادارة جديدة وفرضوا قانونا جديدا وشقوا شبكات من الطرق وطبقوا على الادارة البلدية المبادىء الديكارتية للادارة الفرنسية • اما الى الشرق من ذلك فقد هزمت البنية الاجتماعية القديمة الاداريين الامبراطوريين : لقد امكن تفكيك بروسيا ، لكنه لم يمكن القضاء عليها فاضطر نابليون ان يعرض على الادارة المباشرة الى الشرق من نهر الالب • ومع ذلك فقد طرأ التطور شيئا فشيئا بحيث ما آذن عام ١٨٣٠ حتى أدخل دستور ليبرالي الى الحكومات الاميرية ممثلين عن التجارة وعن الصناعة ، يعني بورجوازيين • ولقد استقر هؤلاء البورجوازيون في الصناعة في انكلترا ، واستولوا على الدولة في فرنسا ، وتسللوا في المانيا الى بنيات لما تبرح نصف اقطاعية •

وهكذا اذا كانت الثورات لم تغير بصورة عميقة عام ١٨٣٠ وجه اوروبا السياسي ، فقد كانت تشهد على التبدلات العميقة التي أدخلها التقدم التكنيكي • ولم يعد التراقب الاجتماعي حقيقة ثابتة محددة بمرسوم من العناية الآلهية ، بل اصبح غليانا من الطموحات ، والهزائم ، والنجاحات ، غليانا يضعف النخب القديمة ليحل مكانها نخبا جديدة • وكان مفهوم الزمان يغير

مغزاه ، والشعوب تعي فرديتها وهي تعاود اكتشاف تاريخها • ويقول كارليل : « لم يكن هذا العصر بطوليا ولا فلسفيا ، ولا مؤمنا ولا أخلاقيا • لقد كان أكثر من أي عصر آخر العصر الميكانيكي » • ان الميكانيك المبني من قبل العلم يجتاح الحياة الاخلاقية •

البحث عن مستقبل

لقد أقضت مشكلة الزمان مضجع باسكال والمفكرين الدينيين مؤدية اما الى الصوفية واما الى الفجور • ولكن نفس مفهوم الزمان يتأنس حوالي نهاية القرن الثامن عشر ، فيكف عن كونه ميتافيزيائيا ليصير تاريخيا : ان الانكليز يقيمون انقاضا في حدائقهم حيث تظفر الاشجار القديمة ، كما تقام جنازة أدبية لأتالا • وكان يبحث في التاريخ عن مصير البشر حتى قبل أن تنتصر الفردية وحقوق الحرية • « لم يعد الشعر والمسرح والفلسفة تخاف من رؤية الزمان وجها لوجه ، فالبورجوازية ما عادت تخشى الزمان منذ عرفت أنه يعمل من اجلها ••• ومهما يبدو المجتمع الصناعي الذي لا يعرف الرحمة حيال الفقراء قاسيا وظالما ، فان الاستمرار العنيد في الجهود المبذولة في سبيل توفير العدة لهذا المجتمع هو الذي سيخفف من الآلام التي أدى اليها في كل مكان في المراحل الاولى منه • ان الزمان سيأتي بالعدالة اذا ما ظل ثمة اخلاص

قليل للحريــــة . » (١) وذلك هو أحد مواضيـــع الرومانطيكية ، ولعلــه يفسر أيضـــا السبب في ان مشيله هو أبو العلم التـــاريخي الحديث . ويغوص شيللر في الدراسات التاريخية قبل ان يكتب **وليام تل** ويحرك مسارح منهايم وستوتغارت ودريسدن ، كما يقترح هايدن الهندسة الجديدة والكلاسيكية للتأليف الموسيقي ، فيما موزارت يدهش معاصريه بالجـرأة غير المتوقعة لتعابيره ، والبيان القوي يقضي على الآلات المماثلة السابقة له ، وبتهوفن يختتم عصر الشعوبية : انه يضع في تآليفه سائر أهواء قلبه فيعبر ، متساميا فوق عواطفه الخاصة ، عن قيم مشتركة بين ســائر البشر ... ان جيل عام ١٧٨٠ قد تحمس للمكان ، لكن جيل الرومانطيكية قد تحمس للزمان .

وفيما وراء الشعر ، تسجل الموسيقى ســاعات الزمان الباطن ، فمقطوعتا بيتهوفن **فيديليو واغمونت** ، ومقطوعـــة موزارت **دون جوان** تلون عواطف لم يكن الكلام يعطي عنها اكثر من الرسم ، فينفتح زمان الأهواء مزدهرا ما وراء حدود المعقول والمنطقي . ان الزمـان شعر وموسيقى في وقت واحد ، وهو يتفجر في عذابات غوتـــه الفتى وشيللر قبل نصف قرن من تفجره في **اسطورة الاجيال** لفيكتور هوغو ، وينسكب في الموسيقى الالمانية ستين عاما قبل محاولة بيرليوز أن يصــيره مفهومـا ومقبولا . وان اوروبا لتتحول وفقـا لهـــذه

---

(١) Charles Moraze , Les bourgeois conquerant P.P 159 - 160

الحركة ، عبر الفوضى ، بحيث سيجرف هذا التسارع للزمان ، بعد أن رفع الروح الرومانطيكية ، النظم الاقتصادية في مصلحة واقعية ستكون الخطوط الحديدية أروع تحقيق لها .

ولسوف تلعب هذه الخطوط الحديديةدورا عظيما في اعادة تنظيم المكان السياسي . وانه لدور عظيم ، ولكنه ليس دورا مجددا دائما : فاذا كانت الامم المتهيئة تقريبا عام ١٨٣٠ قد تراصت بفضلها عام ١٨٧٠ ، فان تلك الامم السيئة الاستعداد قد ضيق عليها الخناق بالروابط التي صنعتها الامبراطوريات القديمة . واذا ربح مبدأ القوميات الجولة فيما وراء جبال الالب ونهر السين ، فانه خسرها عند الشعوب السلافية — لقد جرت الامور وكأن الامم تعجلت امر اعلان حقوقها في الوجود عشية تمديد الخطوط الحديدية كيما تحصل على الاعتراف بكونها امما من قبل النظام الذي سيبلور أوروبا لاكثر من قرن . ان سهولة الاسفار وتطور البريد وتقدم البرق البصري حملت من أقصى اوروبا الى أقصاها افكارا جديدة ، فيما بعض الكلمات السحرية تطلق تيارات من الحماس . ويؤلف اوغستان تييري كتابه **التاريخ** وفقا لمبدأ الصراع بين الاجناس . ولا ريب أن ميشيله وكينه يدينان هذا المفهوم المثقل بصوفية مشبوهة ، لكنهما ليسا متحجرين حيال الكرامة الجديدة **للشعب** الذي يناديان بوجوب أخذه مكان الملوك على العرش . ويدرس كينه المانيا ، ويستحدث في الكوليج دي فرانس كرسي للغة والادب

السلافيين ويعهد به الى ميكييوفيس ، وذلك في وقت كانت الكلمة المزدوجة الوطن ـ الأمة تصبح فيه دستور ايمان ، وهيغل يقترح تمجيد الدولة ، بينما فلسفة تلاميذ كانت تقدم لماركس موضوع تأملاته الأولى ٠

ان هذا البحث عن جمالية للصيرورة تقحم تحرر النتائج السياسية لثورة ١٧٨٩ وفي وعي المنطق الباطن للمجتمع الصناعي ، يشكل بصورة لا يتطرق الشك اليها برهة هامة في تاريخ الحضارة الاوروبية ٠ ولنضف الى ذلك ان هذا البحث لم يعد وقفا على النخب وحدها ٠ فالجماهير تريد ان تعطي شكلا سياسيا لدورهـا الاقتصادي ، وهذا الشكل السياسي يتضمن ترقيـة اجتماعية ٠ وكان القرن قد بدأ مع اختراع فولتا الذي برهن على امكانية انتاج الكهرباء في تيار متصل ، وفي العام التالي بنى تريفتيك عربة بخارية بلغت سرعتها ١٦ كم في الساعة ، وفي سنة ١٨٠٧ انجز فولتون أول رحلة كبيرة في مركب بخاري ، وفي عام ١٨١٩ غامرت الباخرة الإميركية Savammal بعبور البحر فقطعت المسافـة بين نيويورك وليفربول في خمسة وعشرين يوما ٠ ان خارطة هذا القـرن يجب أن تكون خارطة « الهند السوداء » : مناجم وصناعات ٠ وكانت السلطة الحقيقية هي للبورصة ، وكان التاج الحقيقي قبعـة عالية ٠ وفي ذلك الحين كان البشر ـ ليس بوصفهم مفهوما فلسفيا بل بوصفهم حقيقة اجتماعية ـ يرفضون الإستسلام ويطرحون الأقـدار القديمة ٠ وما اكثـر الآمال الخائبة التي تراكمت ٠ ومثـال ذلك أن جمود

الجماهير الفلاحية الفرنسية ، ثم النمسوية ، ولا مبالاتها حيال انتفاضة هي مدنية في جوهرها ، وتباعد الاهداف فبعضها اجتماعي وبعضها سياسي ، تفسر فشل ثورات ١٨٤٨ ، كما تفسر افلاس المثل الاعلى المازينياني (١) الزاعم ان المصالحة ستكون سهلة والوحدة فعالة بين مطامح الجماعات القومية • لكنه تم اكتساب حقيقة واقعة من وراء هذه الآمال الخـائبة ، ألا وهي تأكيد « المسألة العمالية » بوصفها الزاما وجدانيا • ان الطبقة العاملة ستصبح من البلدان الاكثر تصنيعا ، وبالخاصة في انكلترا وفرنسا ، أحد أقطاب الحياة السياسية ، مفتتحة بذلك فصلا جديدا من التاريخ الاوروبي • وان بعض العقائديين ليقترحون أخلاقا جديدة من أجل هذا المجتمع الجـديد : فسان سيمون يؤسس نظـامه على سلطة تكنيكية مطلقة ومدولة ، وفورية يتخيل تناسقا بين كومونات عمالية ، وروبرت أوين يبتـدع **النقابات العمالية** Trade - Unions ، وخلفـاؤه يؤسسون **الحركة الدستورية** Chartisme كي يهيئوا بالديموقراطية السياسية مجيء الاشتراكيـة ، وأوغوسـت كونت يؤسس **المذهب الوضعي** Prositivisme على العقـل والاخلاق ، وستوارت ميل يصوغ اخلاقا للسعـادة العامة ، وهوبرت سبنسر يؤكـد ان التطور الحياتي

---

(١) نسبة الى مازيني Mazzini ، وهو مواطن ايطالي ولد في جنوه ، وأسس جمعية سرية باسم « ايطاليا الفتاة » ، ونقل نشاطه التآمري من ايطاليا الى فرنسا وانكلترا (المترجمة) •

للانسان يقوده الى ان يحسن مصيره بصورة دائمة في نطاق صناعي وليبرالي • ويحرم كتابا داروين **أصل الانواع** و **نسب الانسان** وكتاب أرنست رينان **حياة يسوع** الانسان من فوق الطبيعي • ان ثلاثة قرون لم يبرح نظام العالم طوالها يناقض دون انقطاع قد بلغت فيما يبدو ختامها ، فالعلوم والفلسفات تتحد كي تبرهن ، تجريبيا ، ان الانسان هو المالك الوحيد لاسرار الحياة والمسؤول الوحيد عن مصيره • وفي ايلول ١٨٦٤، خلال اجتماع عقد في قاعة سان مارتان في لندن ، أسست « الجمعية الأممية للشغيلة » ، هذا « الابن الذي ولد في ورشات باريس وأرضع في لندن » •• أيمكن ان يصبح العمل دلالة كرامة الانسان وعظمته ؟ وهل يصبح المعمل ذات يوم رمزا مماثلا للكاتدرائية ؟ ان البابا ليون الثالث عشر ، في رسالته السنوية لعام ١٨٩١ Rerum Novarum قد نادى بتدخل الدولة لحماية العمال ، لكن الحركة العمالية ، هذا التعبير عن البحث الجديد للصيرورة ، سوف تتطور في مجموعها اذا لم يكن ضد الكنيسة ، فبصورة مستقلة عنها على الاقل •

مجلوبات خارج الأوربية

كانت اميركا في عام ١٧٧٠ « ملكا » لاوروبا ، فالتقاليد التشريعية « للمعاهدة الاستعمارية » تفرض على العالم الجديد حالة التبعية • ولم يمض نصف قرن على ذلك حتى فقدت أوروبا بصورة كلية تقريبا ملكية

العالم الجديد ، وكان هذا العالم يتشكل ويصنع مع ذلك على صورة أوروبا نفسها • ولما كان الاميركيون يريدون أن يكونوا أوروبيين بكل معنى الكلمة ، وان يتمتعوا بكل امتيازات هذا اللقب الذي كان وقتذاك ذا حظوة ، فقد كانوا يدافعون عن حقوق المولدين وينصرونهم • وكانت التجارة الاوروبية تنتفع منذلك ، فتربح بورجوازيات الاعمال الجديدة ما تخسره الانظمة الملكية العتيقة • كان المفهوم الجديد عن القوة اقتصاديا وماليا اكثر منه قضائيا وعسكريا ، لكن هذه القوة ظلت كافية لتمكن الشعوب البحرية ، وبالخاصة انكلترا ، من متابعة تقدمها في آسيا ، بسهولة في الهند ، وبشيء اكثر من الصعوبة في الصين التي كانت كتلتها القارية تقاوم بصورة أفضل المشاريع البحرية ، بينما انفتح أمام فرنسا مصير جديد في افريقيا • ولم تكن فرنسا تستطيع ان تدعي لنفسها في المحيطات مكانا مماثلا لمكان انكلترا ، وذلك بصورة خاصة لان نابليون أراد أن يقهر قوة البحر بقوة البر ، مسقطا من حسابه قوة نظام الائتمان الانكليزي ، واكثر من ذلك قوة امبراطورية المياه هذه • ولقد استقرت بحريتان على المحيط كسيدتين له ، البحرية الانكليزية والبحرية الاميركية ، وذلك خلال المرحلة النابليونية وكان كل توسع في الاقتصاد البحري يدعم فعالية لندن الاقتصادية • وان الانطواء القاري الذي اضطرت اليه فرنسا في عهد نابليون ، والتضامن المتزايد متانة شيئا فشيئا بين الانكليز والاميركان ، قد أسهما في اعطاء

بعض عناصر الحضارة الاوروبية تلونا انكلو ساكسونيا ·
وهكذا جاء الوجه الصارم لأبراهام لنكولن في وسط مجلسه ليحتل مكانا بين الصور العائلية في اوروبا · ان زعيم الامة الاميركية « التي حبل بها تحت جناح الحرية والتي كرست للفكرة القائلة ان جميع البشر يولدون متساوين » · هو أحد حلقات السلسلة الطويلة من المفكرين السياسيين الاوروبيين الذين عملوا كي « لا تمحى عن وجه البسيطة حكومة الشعب ، بالشعب ، ومن أجل الشعب » · وحين ارادت الولايات الجنوبية ، المنتجة للسكر وللقطن خاصة ، ان تفرض عبودية السود كمؤسسة فيدرالية ، ردت عليها الولايات الشمالية ، وهي ولايات صناعية وتجارية ، بأن « الحرية هي الشرط الطبيعي للانسان » · ولقد كشف حرب الانفصال عن مبلغ اهمية الولايات المتحدة منذ ذلك الحين في حياة العالم ، فقد حرمت تلك الحرب الصناعة النسيجية الاوروبية من القطن ، وفرضت على مئات الالوف من العمال الانكليز والفرنسيين البطالة التامة او الجزئية ، وجعلت للهند مكانا اكبر بين المنتجين العالميين · وعندئذ ساد الشعور بأن خلاص أوروبا ، وهو شعور سيتأكد أثناء الازمات الزراعية في نهاية القرن التاسع عشر ، ومن ثم قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها · ولقد كان نابليون الثالث واثقا من ذلك حتى درجة بعيدة ، بحيث اكتسب فرصة التمزقات الداخلية في الولايات المتحدة ، مستخفا بمبدأ مونرو ، كي يتدخل في القارة الاميركية ، فيما

كانت الامبراطورة اوجيني تفتتح قنــال السويس ٠ ولقد كان للانكليز في مصر ، وللفرنسيين في الجزائر ، وللألمان في تواطؤ مع سلطان زنجيبار ، وللهولنديين في الجنوب ، موطىء قدم في افريقيا ، واصبحت المراكز التي كانوا يحتلونها مراكز انطلاق ٠ وفي الاول مــن كانون الثاني عــام ١٨٧٧ ، في دلهي ، نودي بالملكــة فكتوريا أمبراطورة للهند ٠ واخذ دزرائيلي على عاتقه ، وهو سليل بعض الاسرائيليين البندقيين ، مهمة صنع « الامبراطورية » من مجموعة متنافرة من المستعمرات ٠ اما ليفغنستون ، وبرازا ، وســـتانلي ، فانهم برروا « الرسالة » التي تزعمها أوروبا لنفسها ـ ربما لان حماية طرق المواصلات كانت تفرض تأمين نقاط الاستناد التي لا غنى عنهـــا على الطرق البحرية ٠ وعندئــذ صنعت بريطانيا العظمى من سنغافورة اللوحة الدوارة للتجارة بين أوروبا والشرق الاقصى ، وذلك في وجــه باتافيا ، عاصمة الهند الشرقية ، الخاضعة للحــكم النيرلندي منذ قرنين ونصف القرن ٠ ان المغـــامرات البعيدة تنفذ الى النفس الاوروبية ٠

ومما لا ريب فيه انها لم تكن المرة الاولى التي تغتني فيها أوروبا بمكتسبات من خارج أوروبا ٠ ومثال ذلك انه عندما كان المسلمون يتلقون في القرنين الحادي عشر والثـــاني عشر تراث الحضــارة الاسكندريـــة والاغريقية ، وعنـدمــا كانوا يقومون بترجمة منهجيــة للكتب الاغريقية القديمة ، ويعاودون اكتشاف ارسطو ويدرسونه بكل حمية ، ويدفعون بالرياضيات والطب

قدما ، ويحددون مبادىء الكيمياء الحديثة ، الخ • فقد استفادت أوروبا من ذلك كله حتى درجة بعيدة • كان الاطباء الميلانيون في القرن الرابع عشر يقرأون ابن سينا في ترجمة عبرية • وكانت مدرسة ساليرنو وكلية مونبلييه الموكزين المحركين للطب العبري العربي • ولكن هذه المكتسبات ، مهما بلغ تمثلها ، لم تبدل الروح الاوروبية نفسها ، ولم يكن لها اية نتائج على المستوى الحضاري • ويمكن ان نقول الشيء نفسه عن « اعلان الحقوق » الذي سبق في حزيران ١٧٧٦ دستور فرجينيا والذي يبدأ بهذا التأكيد : « ان سائر البشر هم بفعل الطبيعة احرار ومستقلون ولهم بعض الحقوق » • كانت تلك صياغة تشريعية لفكرة نضجت في اوروبا منذ زمن طويل ، وتناولها من جديد في ٤ تموز من السنة نفسها المؤتمر المنعقد في فيلادلفيا ، وتحمست أوروبا لها فذهب البولوني كوسيوسكو والالماني ستوبن والفرنسيان سيغور ولافاييت الى الولايات المتحدة : كانت فكرة أوروبية تؤثر على اوروبا عن طريق المحيط الاطلسي •

ولم يكن الامر كذلك بشأن عمليات الاثراء الخاصة بالعصر الحديث • وقبل كل شيء ، فقد أثر المجلوب الاميركي (وهو الذي كان مولدا للتبدلات بصورة خاصة) مباشرة في شروط الحياة • أن الأزمات الزراعية في نهاية القرن التاسع عشر ، مضافا اليها أيضا الانهيار الكبير للسنوات ١٩٣٠ والمشاركة الحاسمة التي حملتها الولايات المتحدة من اجل النهوض بأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية ، اوضحت جميعا

علاقات الترابط المتبادل بين ضفتي الاطلسي ، وهذه الفكرة عن الترابط الاقتصادي في تعابيرها الاولى لم تبق دون انعكاسات اجتماعية ونفسانية وسياسية • ومن ثم فان الطرق التكنيكية الجديدة عدلت الحياة اليومية في مجال الأحداث (وسائل الراحة) ، كما في مجال الأفكار (السينما والتلفزيون) • ان المجلوب الاميركي كان غنيا جدا في سائر الميادين تقريبا ، سواء فيما يتعلق بالعلوم البشرية ام العلوم الطبيعية ، وبعلم الاجتماع أم بالمسرح ، الخ • وان عددا كبيرا من الاعمال الاوروبية ما كانت تشاهد النور لولا هذا المجلوب • ويتضح ذلك بصورة خاصة في المجال الادبي مثلا ، وبصورة أخص فيما يتعلق بالرواية • ان القصة المركزة على شخصية واحدة امحت أكثر فأكثر ، امام نموذج جديد ، بحيث انتهى هذا الاتجاه الجديد الى رواية قصة عائلة كاملة ، قصة آل تيبو وآل بودنبروك وآل باسكيبه ، وآل فوريست أو آل شيرويل ، او الى وصف **هوس : الجبل السحري** • ان الرواية فيما وراء الاطلسي تحولت بصورة اكثر صراحة ووعيا الى قصة كائن جماعي • ومما لا ريب فيه ان باستطاعتنا ان نميز في هذا الاتجاه تأثير **المذهب الاجماعي** Unanimisme لجول رومان ، لكن هذا لا يكفي لايضاح سعته وشموله، بل لابد في سبيل ذلك من الاستعانة بحدة القضايا المثارة في بلد كان نمو المدن فيه سريعا جدا ، وكان تعاقب ترسبات اجتماعية مختلفة يحدث فيه على نسق لا يتناسب مطلقا مع النسق الاوروبي • وفيما وراء

الرواية وعت اوروبا ان العلاقات بين الفردي والجماعي لا تطرح في مجالات ماركسية فحسب ، وان عمليات اخرى من التمايز الاجتماعي يمكن ان ترافق تطور الرأسمالية • وان الكثير من الاعمال الاوروبية ، وبالخاصة في موضوع علم الاجتماع ، تأثرت مباشرة بالجهد الاميركي •

وكان هذ المجلوب الاميركي قويا بحيث أثار رد فعل ضده ، الا وهو رفض تكنيك جاء في أعقاب الحماسة التي استقبلت بادىء الامر الانتاج الصادر عن هذا التكنيك نفسه • لكن التوحيد بين الولايات المتحدة وهذا التكنيك ـ وهو الشكل الاقصى تطرفا في رد الفعل ذاك ـ لهو ظالم بصورة مخصوصة ، وذلك لان الجهد الاميركي يستهدف مصالحة الانسية الاوروبية مع التكنيك الاميركي • ان « الحدث الاميركي » اصبح سريعا أحد عناصر التفكير الاوروبي ، وذلك في وقت كانت العلاقات الاطلسية المتبادلة تتطور فيه حتى درجة يستحيل معها ان يحدد المرء بالضبط ما هو أوروبي محض في هذا العمل الاوروبي أو ذاك • لقد أضحى المحيط الاطلسي ، كما كان البحر الابيض المتوسط في العصور القديمة ، رمزا لثقافة • وصحيح أن رامبو ، المتمرد ضد حضارة موضوعة تحت علامةالتقليد ، وربما كبلينغ نفسه ، الباحث في الحدود القصوى عن علاج للقلق الاوروبي ، ما كان يمكن أن يظهر خارج أوروبا • ولكن رونتجن ، وبيكرل ، والزوجين كوري ، وردذر فورد ، وبلانك ، وانتستاين ؟ وفرويد ؟ وبرغسون ؟

وفاليري ؟ أن ثقافةاوروبية أميركية ـ «ثقافةأطلسية» ـ تبدو هكذا كنتيجة حديثة لاسقاط الانسية الاوروبية في الفراغ الاطلسي ٠

ولقد كان لروسيا ، في جانبها ، تأثيرها على الفكر الاوروبي ٠ ان أدبا غنيا ، رومانطيكيا أولا ثم واقعيا ، يدهش ويسحر في القرن التاسع عشر خاصة أوروبا المثقفة : فمن بوشكين الى نكراسوف والى بلوك ، ومن غوغول الى تشيخوف ، ومن دوستويفسكي الى تولستوي والى غوركي ، يصبح كثير من الكتاب عناصر للحساسية الاوروبية ٠ والامر كذلك بشأن الموسيقيين ٠ ان غلينكا ومكمليه ، وارغومينسكي باديء الامر ، ومن ثم « الخمسة » أو « الفريق القوي » الذي يبرز منه بورودين ورمسكي كورساكوف وموسورغسكي ، ومن بعد تشايكوفسكي ، يقترحون ، وقد تخلصوا من النفوذين الايطالي والالماني وراحوا يستقون من ينابيع الفولكلور الوطني وأناشيده الشعبية وجوقاته الدينية ، أنغاما وتراكيب مدوية تأخذ جدتها بمجامع القلوب ٠ وفي الوقت نفسه يبدأ الباليه ، المستوحى من الرقص الشعبي طريقه الظافرة ٠ ومهما يكن من أمر فأن هذا التأثير لم يتجاوز نطاق الحساسية ، لم يبدل الافكار ، لم يؤثر في البنيات الذهنية ٠ ويمكن أن نجد لذلك أسبابا عديدة ٠ فالبلاد الروسية احتلت زمنا طويلا مكانا غير معين الحدود في أطراف آسيا ، ليس فقط لانها ظلت طوال قرون خاضعة للمغول ، بل كذلك لانها تخص عالما مختلفا عن أوروبا ٠ فالرأي السائد منذ بطليموس

أن تانايس ـ يعني نهـــر الدون ـ يفصـــل قارتين متميزتين • ولم تفرض السلطة الموسكوفية نفسها الا في عهد ايفان الثالث (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥) الذي أدخل بـين أسلحة بيته ، بعد زواجه من أحدى بنات أخي أباطرة القسطنطينية ، النسر المزدوج الرأس الذي هو شعار الملوك البيزنطيين ـ ومن هنا حتى الطموح ، بل المطالبة بميزات آل باليولوغوس ، لم يكن ثمة اكثر من خطوة • ولقد تعلم الغربيون أن يعرفوا الروسيين وروسيا في نفس الوقت الذي دخلوا فيه لتوهم في علاقات مــع الاميركيتين ، بحيث كان اكتشاف امبراطورية القياصرة معـــاصرا نوعا ما لاكتشاف امبراطوريـــة الآزتيك وامبراطورية الانكاس • لكنه بينما كانت العلاقات مع أميركا تتطور في اتجاه ترابط متزايد المتانة ، كانت العلاقات مع روسيا تتطور في اتجاه مختلف تماما • ولا ريب أنه يكون من السخف الحديث عن « استعمار روسي » منذ ذلك الحين • ومع ذلك فتلك المرحلة هي التي تماسكت فيهـــا عند الاكليروس ، وفي الاديرة بصورة أخص ، فكرة « روما ثالثة » لا بد طبعا أن تكون موسكو • ولا ريب أن هذه الايديولوجية استهدفت بصورة خاصة تقوية الاتجاهات التعسفية عندالحكومة ، ولا ريب أنها ظلت طويلا دون تأثير على السياســة الخارجية : ومع ذلك فقد تركت طابعها في الفكرة التي كونها الاوروبيون عن روسيا • وقد ارتسم هذا الشعور في الزمان بحيث استطاع كارل ماركس أن يكتب : « أن النفوذ الفائق الذي استطاعت روسيا اكتسابه وهلة في

أوروبا في عصور مختلفة أفزع شعوب الغرب الذين خضعوا له فكأنه قدر محتوم • أولم يقاوموه الا بصورة متقطعة • ولكننا نجد باستمرار الى جـانب السحر الذي تمارسه روسيا ، شكا يتولد أبـدا ويتبع ذلك السحر كظله ، مازجا النغمة الخفيفة للسخرية بصيحات الشعوب المعـذبة ، هازئا بالعظمة الحقيقية للقـوة الروسية مثل الموقف الذي يتخذه بهلوان كي يبهـر الانظار ويخدع الناس(١) • » لقد كان ثمة تشكك وخوف دائما من جانب أوروبا حيال روسيا(٢) • ومع ذلك عرفت أوروبا دوما منذ ١٧٨٩ أن هنـاك رجـالا أو مجموعات من الرجال يهيئون بكل حمية « اليوم » ، وأفعالهم جميعا موحاة من أيمانهم بأن التاريخ يتحرك بصورة لا تقاوم نحو خاتمة محتومة ، نحو هدف مقدر سلفا • وكان هؤلاء الرجال يقفون على أهبة الاستعداد من أجل « اليوم » ، اما بوصفهم أبطالا مـن سلالة بروميتيوس قادرين على تبديل الواقع ، واما بوصفهم المولدين للتاريخ • ولقد شكلت حركاتهم كيانا يملك استمرارا ووحدة : تلك هي الحركة الميسيانية • ولقد

---

(١) La Russie Et L'Europe P.P. 207 - 208

(٢) بخصوص المظاهر الدبلوماسية لرد الفعل هذا وبخصوص أسبابه راجع دراستنا : ـ

Des Tsars Aux Souiets Logique Et Continuité De La Diplomatie Russe , in La Reuve De Defense Nationale , Mai 1959 PP 822 - 840

ظهرت الثورة البلشفية في عـــام ١٩١٧ بوصفها النقطة القمية لهذه الحركة · ان الميزة الرئيسية للمفكرين والنظريين الميسيانيين منذ روسو حتى ماركس مرورا بسان سيمون وفورييه ، هي أن كلا منهم يجد مـــن الضروري أن يبدأ بحثه ويتابعه بتصفية للحساب مع الدين : أنهم يعون جميعا أنهم يقدمون بديلا عن الدين ·

لكن هذه الميسيانية ، قبل ١٩١٧ ، كانت تنتج بكل بساطة عن تطور بعض المفاهيم المولودة فيما يبدو من مثالية روسو الملائكية · بيد أنها أصبحت منذ ١٩١٧ أحد عناصر الادعاء بعمومية الشيوعية · وعندئذ ظهر « الجرح » · لقد هز الادب والموسيقى الروسيان المشاعر الاوروبية بعمق ، وكانت الشيوعية تمثل في أوائلهـا رجاء عظيما بالنسبة الى الملايين من الاوروبيين وكانت الميسيانية تدخل ضمن تيار أوروبي بصورة نوعية ــ ومن ثم لم تعد الشيوعية تمثل سوى خيانة رجاء عظيم ، بينما الميسيانية ، فيما عدا كونها وهما خالصا ، تبتعد كثيرا ليس عن العقلانية فحسب ، بل عـــن الزامات العقل البدائية أيضا ، بحيث لم تعد اكثر من مجـرد تظاهر « لعالم آخر » ·

ويسمح لنا هذا بأن نطرح قضية الحدود الشرقية لاوروبا · أن اوروبا ، بعكس بعض الآراء التي تستهدف الكسب السياسي ، لاتصل « حتى الاورال » ، ووحدتها لا ترتكز على وحدتها العرقية · أن الحدود تقع قبـــل الاورال بكثير · ولكن أين ؟ لقد حددت العلاقات بـين السلافيين والألمان خطوطا متذبذبة جدا حتى لا يمكـن

الاعتماد عليهـــا • أن القارة تتخن فيما وراء الخط هانبورغ ــ تريستا • وأن المنظر العام ليبين للمسافر شيئا فشيئا أنه يغادر الرأس الغربي للعالم القديم ويدخل في كتلة هذا الاخير : فالمجموعات الجغرافيـة أكثر امتدادا ، والجبـــال محرجة والسهول سهبية الآفاق ، والطرقات اكثر ندرة والشبكات الحـديدية أقل انتشارا • ولقد تبدل الغذاء طوال قرون ، فالحساء يأخذ مكان الخبز ، ويظهر معه الطعـــام الذي يدعى Barszez وهو مصنوع من الملفوف والشمندر ، وشراب Braga المستخرج من الذرة البيضاء وهو يبشر بالكفاس الروسي • وان المدن لتتباعد ، وكنائسـها بيزنطية الهندسة ، وشوارعها سيئة الترتيب ، كما أن بين سكان هذه التجمعات عددا كبيرا من اليهود ، قـد يكون متفوقا أحيانا ، وهم يسيطرون على التجارة وعلى الحرف اليدوية في أغلب الاحيان ، ويتكلمون اللغـــة العاميـــة اليهودية Yiddish ، ويقطنون ما يسمى Ghetto ، وهو مقر يستخدم للمأوى وللعزلة في وقت واحد • وكانت بودابست جزيرة صغيرة من طـراز أوروبا الوسطى في قلب ريف مـــن الطراز الشرقي ؛ وكانت دالماسيا ، الارض اليوغوسلافية ، تشتمل على واجهة ذات صفات لاتينية ، ومؤخرة بلقانية ؛ وكان التشيكي ابن مدينة براغ يختلف عن السلوفاكي ، هذا الراعي القاسي الطباع من جبال تاتراس ، بقـدر ما يختلف الاسرائيلي من أبناء فيينا عن ابن جلدته ، هذا النـزيل البـــائس لبلاد الكاربات السلافيـة أو

البوكوفين . ولا بد من البحث عن مبادىء أخرى لتحديد هذه الحدود الشرقية لاوروبا ـ لكننا لن نستطيع اذن اكثر من طرح العديد من القضايا على بساط البحث : حدود نفوذ الكنيسة الرومانية ، هذا النفوذ الذي يكمله (أو يجسده) نفوذ بعض الفرق الدينية الاخرى ، الخط الفاصل بين منطقة الملكية الزراعية الخاصه والملكية الزراعية الجماعية ، الانتقال من المناطق ذات الطبقات المتوسطة الى المناطق حيث تنعدم هذه الطبقات المتوسطة ، الخ .. ومما لا ريب فيه ان سائر هده الخطوط لا تتطابق ، لكن شأن المناطق الحضارية كشأن المناطق المناخية ، « فالمرور » من الواحدة الى الاخرى لايمكن أن يوضع على الخارطة الا بنتيجة تخطيط خادع ، مادامت القضية في واقع الامر هي قضية انتقال ليس غير .

اندماج المجلوب الاميركي بصورة متينة حتى ليمكن الكلام عن « ثقافة أطلسية » ، والاحتراز حيال المجلوب الروسي الذي لم يتحقق تمثله الا في المجال الموسيقي وحده : هاتان السلسلتان من الوقائع تسهمان في تفسير بعض خصائص الحضارة الاوروبية . وان ما تدين به أوروبا لآسيا ، وأفريقيا ، واميركا الجنوبية يلوح تافها اذا ما قورن بذينك التأثيرين . لقد وجدت النخب هناك عناصر فكرية استفادت منها في سبيل زيادة معارفهـا وتحسين مفاهيمها عن علاقات المكان ـ الزمان في التاريخ، ومثال ذلك أن أديان الشرق الاقصى والفن الزنجي كان لها تأثير أكيد في بعض الاوساط ، لكن هذا التأثير لم يكن له أي ترجيع على الجماهير ، بحيث أنه لم يمس الحضارة الاوروبية نفسها .

«فاترلاند» أو «كندرلاند»

غداة الحرب العالمية الثانية ، كان البعض يتساءلون عما اذا كان الحديث عن « الدفاع عن اوروبا » أمرا مشروعا • كانوا يفكرون في أوروبا بوصفها **فاترلاند** ، أرض الآباء ، ويتساءلون ما اذا لم تكن اميركا وروسيا تشكلان ذلك **الكندرلاند** الذي كان نيتشه يتمناه من صميم قلبه • وكانت بعض الاعتبارات السياسية تتدخل في الموضوع ، وبصورة خاصة نسيان الكثيرين لما قاله ارنست لانيس عام ١٨٩٠ : « ان القدرة على قيادة التاريخ ليست أبدية ، وأوروبا التي ورثتها عن آسيا قبل ثلاثة آلاف عام قد لا تحتفظ بها دائما » ، أو لكتاب ألبير ديمانجون **انحلال اوروبا** • كانت أوروبا تمثل ، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، الارض التي ليست لانسان • وعندئذ فقط ظهر أحد الاتجاهات الاساسية للنفس الاوروبية ، وهو الاتجاه الذي يفسر السلاسل التي تربط اينشتاين الى اوقليدس ، وهوغو الى هوميروس : فيما الثقافات الشرقية لا تعرف مطلقا الاستمرار ، لا تدرك سوى اللحظة الراهنة والابدية ، لا تبحث عن مواطأة بين الكينونة والعدم ، فأن الثقافة الاوروبية ، من جهتها ، تملك حس الاستمرار ، وتخضع كثيرا لفكرة الانسان ـ الانسان بأحرف كبيرة ـ بحيث لا يمكن أن تقبل بما يفكره أو يسحقه • ولعل ذلك

هو أحـــد الاسباب في أن الماركسية اذا هي احتفظت بقيمتها بوصفها طريقــة لبحث القضايا الاقتصاديـة والسياسية ، لم تظل عقيدة جامدة : فقد كان فيهـــا حس القدر ويأس الارادة ، ولكن القـدر (« الحتمية التاريخية) تغلبت منـــذ ١٩١٧ على الارادة (ارادة الانسان في أن يخلق ذاته بذاته) •

وفي تلك البرهة كان يمكن التساؤل ، بعدما أعلن نيتشه بصورة فاجعـــة موت الله ، عمـــا اذا كان **الانسان** لم يمت هو الآخر • ولقد نادى أندريه مالرو : « في نهاية القرن التاسع عشر ، ردد صوت نيتشه الجملة العتيقة التي سمعت على الارخبيل : ان الله قد مات ! واعطى لهذه الجملة من جديد كل لحنها الفاجع • وكان المعنى الذي ينطوي في ذلك معروفا جدا : كان ذلك يعني أن الناس ينتظرون ملكية الانسان • وان المشكلة التـــي تطرح علينا ، اليوم ، هي أن نعرف ما اذا كان الانسان، نعم أولا ، قد مات على هذه الارض الاوروبية القديمة ••• فوق كل ما نراه ، فوق هذه المدن الشجية وفوق هذه المدن المدمرة ، ينتشر على أوروبا وجود أرهب أيضا ، ذلك ان أوروبا التي اجتاحهـــا الدمار واغرقتها الدماء ليست اكثر دمارا وأشد نزفا من صورة الانسان التي كانت تأمل في أن تصنعه(١) » • وفي الوقت نفسه ، **لكن في اتجاه أقل اهتماما بعلم الجمال ، كان البير كامو** يجهد كي يخلق مـــن جديد **أنسانا** على مقياس البشر

---

(١) L'homme Et La Culture Artistique , 1946

ومعنيا بأمور البشر • وصحيح أن هذه القضايا كانت تطرح حتى ما قبل الحرب العالمية الثانية : فاكتشاف لوفيريه للكوكب نبتون عام ١٨٤٦ قد شكل النقطة القمية لمفهوم معين عن هدف العلم ، الا وهو وصف الكون بواسطة الرسوم والحركة وفقا للبرنامج الذي وضعه ديكارت ، وانتصار التفسير الميكانيكي للكون الفيزيائي قد قاد الى الحتمية المطلقة للظواهر الفيزيائية • ولكن نظرية اينشتاين ومن ثم نظرية الكم ، ومن بعدهما « علاقات الارتياب » لهيزنبرغ واستنتاجات لويس دي برولي ، هدمت هذا البناء الجميل •وصحيح أن الاعمال اللاحقة بينت أن اللاحتمية هي نتيجة نقص وسائط المعرفة التي بين ايدينا وعدم كفاية أفكارنا (أنه لامر على جانب عظيم جدا من الاهمية أن يلتحق شخص مثل لويس دي برولي بشخص مثل فريدريك جوليو) ، بيد أن أعمال اخصائي الفيزياء الصغيرة ، مضافة الى أعمال جميع الاخصائيين في العلوم البشرية المجددة منذ السنوات الاولى من القرن العشرين ، قد ادخلت الشك الى العقول ، ولقد فاجأت الحرب الناس في هذه الحالة من الازمة الفكرية •••

وكان يلوح عندئذ أن الشيء الجوهري في القيم الانسانية ليس هو العقلانية (بالرغم من أن هذه العقلانية يمكن أن تقيم سدا في وجه الاساطير) ، وليس هو التقدم (بالرغم من أن هذا التقدم يمكن أن يسمح لنا بالنظر الى ما وراء الانقاض) ، بل هو ارادة الوعي وارادة الاكتشاف ــ وان الحضارة الاوروبية تنصب

هكذا في الايمان بالانسان • ان الاوروبيين ، الاقوياء بادراكهم أن الانسية الوحيدة الممكنة هي أنسية فاجعة ، يجابهون بوعي العالم المجهول الذي ينفتح أمامهم • أن القدر نفسه ، قدر الموت ، قد أحنى ظهور البشر من قرن الى قرن • ولكن أناسا محنيين تحت ثقل هذا القدر ، مجروحين بسببه ، قد عادوا فانتصبوا في أوروبا من قرن الى قرن ، وعادوا فانطلقوا في الليل ، حسب كلمة لمالرو ، « كي يوضحوا الاضطراب العظيم الذي يسود العالم ، وكي ينقلوا الى الآخرين اكتشافاتهم بدلا من أن يجعلوا منها اسرارا ، كي يحاولوا أن يؤسسوا العالم العابر وفقا لصفة الموت الظافرة ، كي يفهموا أن الانسان لا يولد من تأكيد ذاته بذاته ، بل من طرح الكون على بساط البحث » • ويسترسل مالرو : « سوف يأتي يوم حيث يقدر المؤرخون ، بعد دراستهم لسقوط بيزنطه ، وسقوط روما ، والغزوات البربرية وكل التحولات المفاجئة التاريخية التي نشرت فكرتنا عن التاريخ الى مجموع الارض ، ان هذه الازمات لا تشكل الا شيئا يسيرا الى جانب الروح الضارية التي تقول للاخيلة الهائلة المتوعدة التي بدأت تمتد عليها : لسوف نستخدمك ، مثلما نستخدم بقية الاشياء ، مرة أخرى كي نخرج الانسان من الطين ••• » ان حوار الاستمالات والبعوث يتحد بالنسبة الى المؤمنين في صوت الهي ، ذلك ان الجزء الاسمى من الانسان يخص الالهي في رأيهم • أما بالنسبة الى غير المؤمنين ، فان هذا الحوار يتحد في صوت بشري ، ذلك ان الجزء الاسمى من الانسان يخص الانسان في رأيهم • وان تاريخ الحضارة الاوروبية ليحتفظ بهذين القطبين •

خاتمة

في عام ١٩١٤ ، كان الاوروبي الذي يفتح أطلسا يتأمل بكبرياء مــدى سيطرته الارضية : أفريقيــا واوقيانوسيا بكلتيهما تقريبا ، ونصف آسيا ، وربــع أميركا ، ويستطيع أن يعتبر القرن المنقضي لتوه قرنه الخاص ، وان يفرح اذا ما تذكر تنبؤات مالتوس لفكرة تكذيب الاحداث لها • بيد أن الكرة الارضية تضيق في حين تتكشف الانظمــة الشمسية ، هي واللامتناه في الصغر في زمن واحد • لم يكن في مكنة غوته أن يذهب بصورة أسرع كثيرا من أرسطو • وفجاءة ظهرت الآلة البخارية التي « ستفيد في تعريف عصر كامل » حسب رأي برغسون : كانت هذه الآلية تعيد تصنيف الحضارات ، مكرسة عجز تلك الحضارات التي لا تملك سوى الطاقة الصادرة عــن العضلات والريح • وفي الوقت نفسه ـ وكنتيجة لذلك ـ كانت الشعوب المالكة لذلك الشريط الضيق البترولي الممتد من ولاية بنسلفانيا حتى حوض الدونيتز تتربع على سدة الملكية • كان المعمل يتشارك مع المنجم ، وحلم حياة اهنا يتجسد ، والحرب سلاح انها صائرة من كل بد خطيئة تاريخية • وكان انجيل

الحرية ، المتعاظم الانتشار ، يعـــد بتفتح الشخص الانساني وازدهاره ، كما كان قرن روتشيلد وماركس ينتهي مع اينشتاين ، وتفاؤل عظيم يحـرك جوريس وروكفلر • وكانت الرومانطيكية ، الغريبة جدا عـن القرن الثامن عشر من وجوه عديدة ، لكن المستدبرة لعقلانيته ، قد سكبت عاطقيتها عشية انتصار البخار والبورجوازية الرأسمالية • ومن ثم أرادت الواقعية والمذهب الطبيعي أن ينظرا وجها لوجـه الى حضـارة الحديد والذهب ، فيما تشع النزعة العلمية رجـاء ، ويقترح المذهب الوضعي على الانسانية عبادة ذاتها دون أن يفقد المذهب الشخصاني حقوقه على أية حال ، بل كان يسترجع قوة تعبيره حين توافقت ردة الفعل عـلى الحتمية مع تزعزع الحقائق التي صارت ملتبسة بعـد افراطها في اليقين • ولكن النزعة الفكرية الاوروبية بدت أنها تترنح في تلك البرهة بالذات ، فأمثال برغســون واينشتاين أتوا بعد أمثال كلودبرنار وبرتولو ، كان من الواجب اعـادة التفكير في المكتشفات وفي نفس معنى التقدم • وكان الزعماء الكبار المساهمون العظام فـي الاقتصاد الليبرالي لا يبرحون يعتبرون أنفسهم ملاحين لا غنـــاء عنهم أثناء العوصف ، لكن الماركسية كانت تصعد بصوت جوريس وريشة لينين • وماكانت عبقرية اوروبا المبدعة تتأثر بفعل ذلك ، بل كانت تنجزالمصباح المتألق ، والمولد ، والسينما ، واللاسلكي ، وتخترع السيارة والطائرة ، وتخترق سر الذرة ، وتتوصل الى ادراك الزمان ـ المكان لنظرية النسبية •

ونستطيع اليوم ان نؤكد ، بقدر ما تسمح لنا السنوات الماضية بالرجوع القهقرى ، انه ظهرت منذ ذلك الحين بشائر اليوم الذي سيسأل بول فاليري فيه : « هل ستبقى اوروبا كما تبدو على حقيقتها ، يعني الجزء الثمين من الكون الارضي ، لؤلؤة كرته ، وعقل جسد شاسع الاطراف » ، والذي سيعنى فيه بمعرفة ما اذا كانت اوروبا ستصبح بكل بساطة طرفا للقارة الاوروبية الآسيوية أو مجرد « رأس صغير » . وأطل ذلك اليوم حين تلاقت الجيوش الاميركية والروسية على نهر الالب . هل بدأ « زمان العالم المنتهي » ؟ كانت الظواهر جميعا ضد اوروبا ، لكن الاحداث ستبرهن على أن هذه الظواهر كانت خداعة .

ان الصيغة « وجدان اوروبا » يمكن أن تعني نوعا من الوعي الواضح الصريح ، يمكن أن تعني « تصورا » . لكن التفكير في اوروبا على هذا المنوال يساوي من دون ريب التفكير في الذات في تعارض مع « شيء آخر » . الا يكون بالاحرى من الافضل البحث عن « اوروبا في حالة الفعل » بدلا من « اوربا في حالة التصور » ؟ انه ليمكننا أن نعرف فكرا اوروبيا بطريقة خاصة للعلاقات بين الانسان والطبيعة ، بين الانسان وأشباهه ، بالاحرى منه بفكرة أو بتصور . وانه ليمكننا أن نجد شيئا ما اوروبيا بصورة منطقية نموذجية ، في أعمال متنوعة جدا مثل **دروس في فلسفة التاريخ** ليهغل ، وبعض الدراسات عن الحضارة العينية ، وروايات مالرو الاولى أو ابحاث كامو ، ان القضية هي قضية تمييز بين الانا والعالم ،

وبنتيجة ذلك بين فكرة الموضوعية والحقيقة • فليس ثمة فكرة للحقيقة في بعض الحضارات ، بل العالم نوع من القشرة الترابية التي يتوجب على الانسان الاندماج فيها ، أو مجموع ذو مغزى بالاحرى منه موضوعا يتوجب تقدير حقيقته ، وعلى مستوى الذكاء ، فان فكرة معينة عن الحقيقة تقوم في أصل الوجدان الغربي ، وبنتيجة التسلسل بين الافكار والعلوم والاساليب التكنيكية ، في أصل أساليب العمل الاوروبية • ويقوم في مركز ما حققته اوروبا من اختراعات العمل بمعناه الهيغلي والدولة بوصفها بيئة انسانية يجب ويمكن أن تزدهر فيها شخصيته الانسان المواطن ، وليس بوصفها حقيقة جماهيرية • بيد أن هذه الاشكال للعقل ، هذه الاشكال لسلوك عقلاني أو روحاني ، كانت في حالة من الازمة ، أزمة وجدان وأزمة فكرة الحقيقية • لقد اعتمد العالم الغربي طوال قرنين أو ثلاثة قرون على تواصل للحقيقة ، وهي فكرة كان يحس هشاشتها ويفهمها • هل كان العلماء بعيدين جدا عن فلسفة المعرفة التي نادى بها بوانكاريه مثلا ؟ ربما لا ــ لكن هذا الشك المتجدد حيال الموضوعية العلمية كان يشكل هو نفسه ، بما يتضمنه من قابليات واستعدادات ، جزءا من المكتسبات الثقافية الاوروبيــة • لماذا ؟ لان الاوروبيين عاشوا نشــيد اورفيوس ، والعصر الميسيني ، والمأساة الايسيكلية ، وعدد فيتاغوروس ، وهندسة اقليدس ، والاناجيل ، والالحان الغريغوزية ، و « ماذا أعرف ؟ » لمونتين ، وتشككات ايراسموس ، و « أنا أفكر » لديكارت ،

والقلق الباسكالي ، والمأساة البتهوفينية ، والرجاء الاشتراكي ٠٠٠ وبالخاصة لان سائر هذه القيم تم ابداعها ، وتجسيدها ، والقاؤها الى العالم بواسطة هذه المغامرات الشخصية وفرضت نفسها قليلا فقليلا على مستوى المحسوس وعلى مستوى الجماعي على حد سواء ٠

ان دراسة الحضارة الاوروبية يعود الى ملاحظة خارطة جغرافية : فتفحص التضاريس ، وأشكال الارض ، وأسماء الاماكن ، وتوزع السكان ، الخ ٠٠ يسمح بتحديد التاريخ الجيولوجي للمنطقة وبتحقيق بعض التقسيمات ٠ وان الحضارة الاوروبية ، كما تتراءى لنا (وكما تراءت غداة الحرب العالمية الثانية) هي نتيجة رسوبات استمرت طوال قرون ، ومثلما تنحشر التناقضات ، في تفسير منظر طبيعي ، في منطق وحيد هو هو منطق الاستمرار ، كذلك ينحشر ما يمكن ملاحظته من تناقضات في السلوك الاوروبي في منطق للاستمرار ، وصحيح انه يجب الاحتراز من الرموز ـ التي لا تقل خطرا عما يدعى « درس التاريخ » ـ لكن بعض هذه الرموز تمثل تلك «المناورات» التي كان بودلير يمجدها ٠ وان الاختلافات ، بله التناقضات ، تصبح هي الاخرى ذات مغزى ٠ ماهي الصلات بين **ربيع** بوتيتشيلي ولوحة فان غوخ **الليل المرصع بالنجوم** ؟ بين هذه الحدائق التي يقول أراغون بخصوصها انها « شبيهة بصلوات القرون المتلاشية » والمحطات التي هي أنصاب مهيبة للقرن التاسع عشر ؟ بين ألحان شوبان اللاهبة والمخجولة في وقت واحد والتحليلات التي يعمد بيكاسو اليها ؟

ان نفس الحضـــارة انتجت تلك التلوينات الوسيطة وأحواض روتردام ••• ان الالواح الزجاجية في سارتر لا تبرح في أوجها ، لكن أنقاض بور رديال دي شـــان ليست مطلقا مجرد قطع في متحف ، اذ أنها تحيا عـلى مستوى الشهادات ، وبالخاصة على مستوى المعاني ، حتى أنها تؤثر في مستقبلنا • ويمكن تفسير حج الطلاب الى شارتر وبعض المظاهرات السياسية بنفس الحاجة الى تجاوز الواقع العرضي ، فهذه المظاهرات وذلك الحج يمكن فهمها اليـــوم ، وهي تتكامل لان تاريخ الفكر الاوروبي هو تاريخ تمرد الانسان المتصل ضد كل ما يدعي اضاءة امام قدر محتوم او انكار مطاليبه في الكرامة، ولم يبق هذا التاريخ ابدا تاريخ نخب منعزلة عـــن الجماهير : ان رفض الاستسلام ، باسم ماهية الانسان ، هو أحـد العناصر السائدة في سيكولوجية الجماهـير الاوروبية •

واذا كان الاوروبيون ، بوصفهم جماعية ، قـد رفضـــوا غداة الحـــرب العالميـــة الثانيـــة ما يعتبره البعض تعبـــيرا عن حتميــــة التـــاريخ ، رفضـــوا ارجـــاع اوروبا الى **أرض ليســـت لانســـآن** أو الى « رأس صغير لآسيا » ، تحويلها الى مجرد متحف ، فانما ذلك بالضبط لان هذا الاستعداد للرفض مكتوب في أعمق أعماقهم • وان هذا الاستعداد ليرتكز على مجتمع مخصوص جدا ، يتميز فيما يتميز به بأهمية الطبقات المتوسطة ، وببعض الروابط بين المدن والارياف ، الخ•• تجعل من ذلك الرفض تعبيرا عن مجتمع • بيـــد أن الاوروبيين قد وعوا ـ وعندئذ حدث تبـــدل كبير في التاريخ ـ اندماجهم في المجموعة الاطلسية • وصحيح

ان هذا الاندماج لا يعود تاريخه الى الحرب ، ولا بد من الصعود الى السنوات الاولى من القرن السادس عشر كي نجد أصوله · بيد أن هذه التضامنات الاطلسية لم تع نفسها قبل أن تصبح مهددة في ذات وجودها · ولقد كانت المناقشة تصير ممكنة لو أن الشيوعية لم تكن أكثر من نظام سياسي جديد ، من تحريف قضائي جديد للعلاقات وبين المواطنين، وبين المواطنين والدولة، من ارادة احلال طراز جديد من الاقتصاد محل طراز آخر، لكنها تريد نفسها ثقافة جديدة ، تريد أن تصنع انسانا جديدا ـ ويرفض الاوروبيون النداءات الموجهة اليهم من الشرق باسم ثقافتهم بالضبط ، باسم تعلقهم بفكرة معينة عن الانسان· انهم لا يرفضون بعض الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية ، بل يرفضون جدلية تبرير سائر الوسائط بالغاية الاخيرة ، ويرفضون الالزام المفروض على كل مواطن بضرورة الاختيار بين دور الجلاد ودور الضحية ، ويرفضون أخيرا ذلك الحرمان في كل تمرد · ويقول كامو : « ليست الشدة نقيضا للتمرد ، بل أن التمرد هو الشدة ، هو الذي يأمر بها ، ويحميها ، ويعيد خلقها عبر التاريخ واضطراباته ··· ان الشدة ، المولودة من التمرد ، لا يمكن ان تعيش الا بالتمرد ويستطيع الانسان أن يسيطر على كل ما يجب السيطرة عليه في نفسه ، كما يجب عليه ان يصلح في الخلق كل ما يمكن اصلاحه ··· وبعد ذلك ، فان الاطفال سيموتون دائما بصورة ظالمة ، حتى في المجتمع الكامل· ان الصيحة التي يطلقها ديمتري كارامازوف : لماذا ؟

سوف تدوي ابدا ، ان الفن والتمرد لا يمكن ان يموتا ! الا مع موت الانسان الاخير ... » (١)

ان امكانية التمرد هذه ، وذلك الحق في عدم الخضوع للاستسلام ، هما الشيئان اللذان سعى الاوروبيون الى انقاذهما غداة الحرب العالمية الثانية . ولقد ادت بهم هذه الارادة الى وعي اندماجهم في مجموعة أوسع من اوروبا ، ألا وهي المجموعة الاطلسية . وبهذا المعنى فان مقدمة معاهدة واشنطن المعقودة في ٤ نيسان ١٩٤٩ تشكل تاريخا هاما حتى الدرجة القصوى في تاريخ الحضارة الاوروبية ، ألا وهي وعي الامتداد الاطلسي لهذه الحضارة .

وفي خاتمة المطاف ، فان هذه الحضارة هي حضارة الحوار الذي ليس الحصول على انضمام المحدث هو الشيء الاساسي فيه ، بل احترام هذا المحدث ، بوصفه محدثا بالضبط ، احتراما كافيا كي يظل الحوار ممكنا ، وهكذا كانت احدى ركائز تاريخ هذه الحضارة التأكيد بأشكال مختلفة على الحق الذي يملكه كل انسان في البحث عن حقيقته الخاصة ، اذ ليس في هذا الكون حقيقة واحدة ـ حقيقة بأحرف كبيرة ـ بل حقائق بقدر ما فيه من وجدانات .

---

(١) L'homme Révolté , PP : 372 et 374

فهرس

صفحة

صفحة

منشورات

الفن الحديث العالمي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق : ص.ب ٢٠١

هاتف ١٣١٤٧

العنوان : شارع بورسعيد رقم ١١٧

مطبعة الجمهورية

دمشق : ٢٣٥٥٦

— ٢٠١٠ —

ثمن النسخة : ١٦٠ ق.س أو ما يعادلها